من سلسلة حكايات
على ضفاف الخليج الجزء الأول
تــأليــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء
إلى فرحة عمري وثمرة حياتي، إلى الوليد الذي رأيتهُ بعينه شمس الحياة وهي تشرق لتمنحني دفء الحياة وروعة الحب.
إلى الزهرة التي تفتحت في ربيع عمري فملأت جوانبي بأريجها العطر، وعطرت الدنيا من حولي بعبير نسائمها فخففت عني وطأة المعاناة في رحلتي ودروبي.
إلى الإنسان الصغير الذي اقتطعته من قلبي وكبدي لأهديه للدنيا إنسانا مفعماً بالخير والحب فأهدتني به الدنيا دفء وعمق الإيمان ومحبة الخير.
إلى امتداد أصلابي وحياتي من بعدي...
إلى ابني عبدالرحمن.
أهـــدي هـــذا العمـــل
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]
المقدمة
لم يكن القرار سهلاً ولم تكن المهمة هينة حين قررت أن أضع تجارب إنسانية أمام القراء في مجتمعنا العربي المسلم وان أسلط بعض الضوء على السلبيات الدخيلة على مجتمعنا وعقيدتنا وتقاليدنا العريقة أفرزتها الطفرة المادية فكادت أن تغطي بقامتها الكئيبة على ما نملكه من كنوز حقيقية تتمثل في السلوكيات والطباع المنضوية تحت راية العقيدة والتقاليد العريقة والشيم العربية الأصيلة المحفورة في تراثنا المجيد.
إن المجتمعات التي وصلت إلى أعتى وارفع درجات الحضارة المادية والتكنولوجيا تعيش الآن أسوا وأحط حالات التفسخ والضياع الإنساني. جنس- مخدرات- جريمة وتفكك اسري رهيب ضاعت بها قدسية العلاقات الإنسانية الرفيعة التي تربط مجتمعاتهم تحت ما يسمى بالحرية.
ونحن في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى للتمسك بالكنوز الغالية التي نملكها والقيم الرفيعة السامية التي نشأ مجتمعنا في ظلها واغترفها من ينابيع العقيدة الإسلامية السمحة ودستورها الكريم.
أخيرا أقول للقارئ الكريم أنا مجتهد فمعذرة ان شاب عملي خطأ أو تقصير وهي رسائل إلى كل القراء من واقع ملفات المجتمع الذي يزخر بكل ما هو طيب ونفيس.
عزيزي القارئ..
يطيب لي بمناسبة صدور مجموعتي الأولى أن أتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى كل الذين ساهموا في التصحيح والصياغة.
واخص منهم الأستاذة القديرة لبنى عبدالله يوسف احمد الجيدة.
لهم ولكل القراء وأصحاب الرأي والقلم كل الاحترام والتقدير.
محمد عبدالعزيز احمد الباكر
مقبرة الزهور
تدوي مطارق الألم بين جنبات النفس محدثة دوياً هائلاً ومكتوماً تقشعر له الأبدان وتظل السياط تهوي لتمارس وظيفتها الأبدية في تعذيب الإنسان حين يتلذذ البشر برؤية النفوس المعذبة والقلوب المتعبة من بين ذويهم بل قل فلذات أكبادهم. بداية الصيف مازال الطقس مقبولاً لكن الشمس بدأت تفرض سلطانها الذي فقدت جزءاً كبيراً منه بفعل الشتاء المنصرم. وهكذا بداية التفكير بالهروب الجماعي الى بلدان أخرى تحت خطوط عرض معتدلة. وتشتد الرغبة في السفر حسب الظروف المناخية والاجتماعية وتشكل الثانية عنصرا ذا نسبة لا بأس بها بين البعض حيث الفرار من القيود التي تحكم قبضتها على القلوب والمشاعر.
كانت البداية بأحد الأسواق العامرة حيث كان يقود سيارته على مهل ليقتل الوقت وهو يحملق صوب أبواب المحلات المشرعة. ورآها تغادر سيارتها برفقة خادمتها وبلا شعور صف سيارته وترجل منها وقلبه يخفق بعنف كأنه يتشرف برؤية فتاة لأول مرة أحس انه انتقل من عالمه المحسوس مخترقا الزمان والمكان إلى عالم آخر يعبق بالعطر ويلفه السلام. كانت فتنتها تثير أطواقا ملتهبة تلتف حول قلبه لتعتصره.
ارتجفت ركبتاه وأحس بالبرودة تسري في دمه واتكأ على مقدمة السيارة ليحفظ توازنه وبعد برهة التقط خلالها أنفاسه تقدم وهو يحاول السيطرة على توازنه حيث تصطك ركبتاه أو هو يحس بهما كذلك متوجها إلى المحل الذي دخلت إليه وما أن مرق أمام الباب حتى لمحها ترنو ناحيته كما لو أنها تنتظره. كانت لمحة خاطفة لم تدم سوى لحظة لكنها كانت كافية لان تجعل قلبه يتقافز بين ضلوعه كطير حبيس ينشد حريته.

ودفعه الأمل الكبير بان يعاود الكرة ويمر أمام باب المحل ليرى المعروضات في واجهته أو يتظاهر بذلك- كان الحوار مضطربا داخل نفسه فهو يعاني من إحساس غريب ولذيذ بأنه الحب الذي لم يجربه من قبل ويحس في هذه اللحظة أن دماءه وجسده يجتاحهما تيار قوي وتسري على مقدمة السيارة في انتظارها وبعد برهة من التفكير قرر أن يتخذ السائق صديقا له. تجاذب الحديث في مودة وبنفحة مالية قليلة كانت البيانات في عقله- الاسم والعائلة ومكان المنزل ورقم الهاتف. واخرج بطاقته المسجل عليها رقم هاتفه وأعطاها للسائق واعدا إياه بمكرمة أخرى أن وصلت إليها.

كان الفتى يصعد إلى سيارته فيما هي تمد قدمها الصغيرة خارجة من المحل وعاود قلبه التمرد مرة أخرى حين بدأ يهتز بين ضلوعه بعنف، وحين وجدها تتلفت حولها ثم غابت داخل سيارتها وانطلق بها السائق الأسيوي إلى وجهته.

كان ميلاداً جديداً للفتى تحطم على أثره جدار شرنقة مغلقة لا يرى فيها إلا مقعده في الجامعة ودائرة معارف عبثية المعنى لم يكسرها النضوج بعد. شق طريقة على كورنيش البحر وهو في نشوة زادها النسيم القادم من جهة البحر فملأ صدره بالهواء فيم كانت أصابعه تدفع بشريط الموسيقى إلى فوهة مسجلة السيارة.

لم يكن صعبا على السائق الأسيوي أن يتحدث بلغة مكسرة يلمح فيها إلى أن احدهم أعطاه بطاقة ثم مد يده اليمين خلف رأسه بها فتناولتها متمعنة في رقم الهاتف والاسم جيدا، ثم إعادتها له بعد تعنيف رقيق وتشديد على أن لا يقبل مثل هذه البطاقات مرة أخرى فاعتذر السائق محاولاً تبرير موقفه. واندفعت سيارته تشق طريقها إلى المنزل الكبير. ثم انسابت الأيام كان الشاب فيها يحترق من الداخل متشوقاً لسماع صوتها. كانت صورتها تملأ ما بين جفونه تلك الصورة التي توقفت الحياة برؤيتها ثم بدأت بداية جديدة أيضا برؤيتها. إحساس قوي يغالبه ويزداد داخل نفسه بأنها ستحادثه. وبدأ نمط حياته يتغير فهو لا يغادر البيت إلا لضرورة لينتظر صوتها على الهاتف. ينتفض حين يسمع رنينه وأخيراً جاءه الفرج. صوتها يأتي عبر الهاتف. يستشعر بعض الانتصار ويتلعثم. وشيئاً فشيئاً يذوب الثلج بفعل الهمسات الرقيقة وتبدأ بعدها القلوب الظمأى بالارتواء. الفطرة هي الفطرة وطبيعة البشر لا تتغير مهما تغيرت أساليب الحياة وأنماطها. قد تتغير الأشكال وتتنوع أساليب. لكن المشاعر الإنسانية تظل إحدى الخصائص الخالدة في نفوس البشر مهما اختلفت أجناسهم ومناصبهم. ترعرع الحب وعطر القلبين الصغيرين بعطره وتجددت به الحياة لكلهما وأصبح زاداً يومياً يمدهما بالأمل لحياة سعيدة وكريمة. سنوات أربع مرت حملت في لحظتها ذكريات هانئة سعيدة اقتربت بعدها اللحظات الحاسمة والهدف الكبير السامي في الوقت الذي كانت فيه أسرته ترشح له إحدى القريبات.

كان هو يفكر كيف ومن أين يبدأ. فاتح والدته بالأمر ودار نقاش وحوار اقتنعت بعده الأم وكان القرار من الشقيقة الكبرى التي كانت تحس بما يعانيه شقيها. وبعد ترتيبات تحدد موعد الزيارة للاستطلاع. مقدمات معروفة ومجاملات الضيافة ثم جاء الرد بعد ذلك رفضاً رقيقاً مغلفاً بالأعذار، وضاعت كل آمال الشاب وتبخرت في الهواء كل لحظات السعادة. لكن هناك بقية من أمل سيسمع صوتها اليوم ويستوضح اللحظات جمرات من نار تلظى في عروقه لا نوم ولا طعام. وطال الانتظار وسياط الألم تمزق نفسه وقلبه. أحس بأن العالم كله يعاديه ويصنع حاجزاً رهيباً بينه وبين من اختارها ليبني معها الحياة. أربعة أيام كانت كأنها قرون من الزمن مرت عليه لم يسمع صوتها لتشرح له ما صار وما سيصير. كان القلق عليها يمزقه. تمنى لو حادثته دقيقة واحدة فقط ليستريح وليطمئن عليها وبدا أن غروب شمس هذه العلاقة السامية وشيك. وفجأة جاء الأمل في صوت السائق الأسيوي على التليفون يطلبه ليشرح له باختصار أنها تحت رقابة شديدة من أسرتها.

ارتاح قليلاً وبدأت هواجسه تأخذ منحنى آخر فلا فائدة إنها التقاليد العريقة التي تنكر أحاسيس المرأة ومشاعرها وأشياء أخرى سامية. هناك في الجانب الآخر كانت ردة الفعل عنيفة ومليئة بالشكوك والعناد ومحاولة التضييق والرقابة. أساليب عفا عليها الزمن. في عصر داس الإنسان القمر بأقدامه وأضحت الكرة الأرضية في حجم كرة القدم, ومرت ليال طوال قاسيات اعتصر فيها الحزن الشاب وذبلت فيها نضارة الفتاة إلى أن استقر الوضع وعاد الاتصال مرة أخرى عبر الهاتف وبدأ الشيطان يستعد لجولته الثانية بعد أن خسر الأولى.

بدأت ترتيبات الزواج للفتاة من قريبها الموعود وبقدر الفرح والبهجة التي سادت هذا اليوم وتلك الليلة للأهل وصاحب الحظ بقدر ما تمزق الشاب والفتاة معاً ومزق الحزن واليأس شباك قلبيهما.

وتوالت الشهور والشيطان ينسج شباكه في مهارة وذهب الربيع وحلت تباشر الصيف ومعها كان الشيطان قد احكم طوقه ورسم بصماته على وثيقة الخطيئة- مكاتب الطيران تزدحم بروادها من المسافرين والكل يمني نفسه برحلة طيبة ولكل وجهته وطريقه وما لا يمكن في بلادنا يمكن بسهولة في بلاد أخرى فلا احد يعرقل دساتيرهم تقر لك ما تشاء وتم اللقاء الخطأ وبدأت هناك الخطوات الأولى على طريق الخطيئة والخيانة.

]

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

^ (سورة آل عمران : 117)

قصة كفاح

العمر حسب مقياس الزمن هو المسافة الممتدة بين لحظة المولد وتاريخ الرحيل النهائي ومن البشر من يرحل تاركاً مساحته تسبح بالنفايات ومنهم آخرون يتركونها وخلفهم ذكريات يفوح منها عبر العود وطيب العمل. يفهمونها ويزرعونها بأيديهم. قليل من الناس من يضع الحياة بمجملها أمام عينيه وينظر إليها من كافة الزوايا متفحصاً أبعادها بمنظار العقل والحكمة ليعرف في النهاية أن الخاتمة واحدة وان الجميع متساوون فيها رغم الاختلافات والتفاوت في المال والجاه والأخلاق. بين الساحل الإفريقي وحواضر الخليج كما كان بين السواحل الهندية والبصرة رباط متصل ووثيق مرسوم على أمواج عالية هكذا قال الرجل الفارع الذي تبدو عليه مظاهر النعمة والذي يكافح بلا كلل من اجل أن يشق طريقه إلى مبتغاه بين دهاليز الثروة وبريق الذهب.

لم يكن الوضع العام في ذلك الوقت حسناً إلا بعادات الناس وطباعهم المجبولة على حب الخير والقلوب النقية التي لم تلوثها عوادم السيارات الحديثة والنفايات الحضارية الرخيصة. ولم يكن ذلك يكفي ليقتات الصغار ويتعلموا. ولم يكن ذلك يكفي أيضا ليتبوأ الرجل مكانته التي يبتغيها بين الموسرين. فجمع المال لم يكن وسيلة أبدا بقدر ما جمع بين الغاية والوسيلة. بين الغالبية من أبناء آدم. حين ترك الصغار خلفه تلك المرة كانت زوجته تعاني من حملها السادس والآخر وكانت تتمنى لو أصبح الذكور ثلاثة بدلاً من اثنين ولم يفكر هو في ذلك كثيرا إذ انه لم يكن مثل ذلك التفكير ليشغله عن مهماته الشاقة وفي رحلاته صوب مدن الهند التجارية العريقة وسواحل إفريقيا.

ذكاءه وحرصه وعزيمته عوامل أثرت تماما في عمله ورغم أن الحظ خانه مرة حين طبع البوم وعلى متنه جزء من تجارته إلا انه وبمساعدة قيمة من الزوجة بدأ من جديد وابتسم له الحظ مرة ومرات.

في تلك الظروف كانت ارض الجزيرة قد بدأت في قذف ما بجوفها من خيرات في الوقت الذي تمخضت فيه السيدة زوجته فوضعت وكان لها ما تمنت صبي ناصح البنية فيه ذكاء وفطنة لم يظهرا عليه أبدا إلا انه كان يتمتع بهما وقد أدرك من هم حوله ذلك في وقت متأخر. ورغم أن الأبناء عادة ما يشبهون آباءهم إلى حد كبر في الشكل وبعض الطباع إلا أن ذلك الصبي كان يشابه أباه عبر سلسلة بشرية امتدت من أصلاب الجدين السابقين إلى حد بعيد وان اختلفت الظروف التي أطاحت بكل منهم.

التدليل للصغار يفسدهم ويؤثر على مستقبلهم هكذا يقول وهو فعلاً ما حدث حين كان التدليل أو غيبة الاهتمام في خضم الصراع والسعي نحو القمة المنشودة سبباً رئيسياً في ابتعاد أو لنقل غيبة اهتمامه بالدراسة.

فيم كان باقي أطفال العائلة أو من هم في مثل عمره يتخابثون عليه ليستولوا على لعبته المفضلة أو نقوده. ولطيبة قلبه ونبله كان يعطيهم بطيب خاطر رغم انه كان يفهم ما يضمرن له. ولكنه كان يحاول بذكائه أن يستميلهم ويشتري حبهم. والمثير في الأمر أن ذاكرة الطفولة الخصبة والبريئة اختزنت أيضاً محاولاتهم الناجحة لإبعاده عن الدراسة. الكبار هم الكبار في اهتماماتهم الكبيرة. شغلتهم دراستهم عنه ولم يحتويه إلا حضن .. إنه تلك السيدة الفاضلة التي دائماً ما كانت تنصاع لطلباته، وانسابت الحياة في هدوء وقوة الخير والرفاهية. المال والسفر خير عميم غطى وجه المنطقة وافترشها لينهل منه الجميع. وكبر الصغار وأصبحوا شباباً يانعين وكل حصل على مبتغاه المرسوم أو الذي أراده وكلهم في خير ونعمة واجتازوا جميعا مراهقتهم في سلام وثبتوا أقدامهم على عتبات الرجولة.

كل ذلك والحياة تمضي كعادتها لا يتوقف جريانها من أجل حدث هنا أو هناك. لكن هناك محطات في ذاكرة التاريخ لكل إنسان لا يستطيع أن يتجاوزها دون أن تؤثر في حياته ولو استبعدنا المسلمات في الحياة مثل الزواج فيجب أن نتوقف عند حدثين في غاية الأهمية نظرا لتأثيرهما الفعال والملموس في حياته وهما الاندفاع المحموم نحو بناء نفسه ثقافيا حيث لم يغريه عالم الأعمال الذي يمتص الحياة من عروق أصحابه ولا يترك لهم مجالاً ليحسوا ويتألموا ينفعلوا ويفرحوا مع مجتمعاتهم إلا بقدر ما تظهره شاشة آلة حسابية أو كمبيوتر مع مبالغ أو أرقام حتى يفاجأ الفرد بأنه كان الحارس لكنوزه. وذلك بعد فوات الأوان. ورغم انه يحب المال ويحرص عليه. إلا انه أراد أن يحقق ذاته في الوقت الذي يعيش فيه مع البشر أحاسيسهم وأفراحهم ويغذي عقله من مناهل العلم والمعرفة. ولم يصدق نفسه حيث فوجئ بالآخرين لم يصدقوا. لقد بدأ الأمل يتحقق لكن بعض مرضى النفوس هنا أو هناك يحاولون في استماتة الحاقدين أن يعيقوا حركته وكان إصراره وعزيمته أقوى من الحقد وكان المثل المأثور لديه (دع الكلاب تعوي فان القافلة تسير) لم يلتفت ولم يهتم. وظلت أيضا الكلاب تعوي ولا غرابة في ذلك لأنها ستظل تعوي إلى أن تقوم الساعة.

الشيب له حكمه ومصارعة الزمن لها تأثيرهاً على البشر فالرجل الكبير ومثله الأعلى يعاني من الآلام وهو أيضا يتألم لآلامه. يتمنى لو عاش أبوه بقية الزمن فهو يحس بابيه إحساساً خاصاً لأنه ابنه ولأنه أيضا يحمل خصوصية الامتداد من أصلاب الأجداد. وفي احد الأيام وقت الغروب يراها على الطريق واكتحلت عيناه بحسنها وجمالها. قاوم ولم يستطع تذكر زوجته وابنته. حاول مرات لكن نداء القلب أقوى وحملت أسلاك الهاتف الساعات الطويلة معزوفات الحب الجارف. لحفته بضفائرها وأسكرته بأقداح الخمر المسكوبة من بين شفتيها وغاص في بحر عينيها بلا أدنى مقاومة فنسي نفسه وضاع في مجاهل حبها لكنه كان يحاول أن يسيطر ويتحكم حتى لا يذهب إلى نقطة يصعب الرجوع عندها.

وساعده نبله وأخلاقه الكريمة في التوقف عند اللحظة المناسبة حين تغلبت في النهاية عاطفة الأبوة وإعزازه لزوجته ولكنها مازالت في قلبه بذكرياتها المعطرة بأريج العاطفة الصادقة.

محطتين بارزتين في حياته كان لهما تأثير عميق في بنيانه النفسي وتجاربه الإنسانية. تغيرت بهما حياته من النقيض إلى النقيض حين امسك بمفتاح الصدق مع النفس ولم يترك نفسه للأيام والأحداث تجرفها كما تشاء بل حاول أن يؤثر في الأحداث لصالحه بالحب الكبير الذي ملأ قلبه والذي وصل إلى حد القداسة لأبيه وأمه وأسرته الصغيرة ولكل الناس حتى الذين حاولوا ان يطعنوه من الخلف.

الأحلام لا تتحقق إلا بالعمل الصحيح في سبيل هدف نبيل أو فكرة عظيمة وهذا هو ما سيطر على أفكاره وأصر عليه. كانت الشمس تميل ناحية الأفق وصوت الموسيقى الهادئة ينساب فيما كانت عيناه تنظران إلى الآفاق الرحبة والدموع المنسابة من مقلته في الوقت الذي امتدت فيه يد ابنه لتساعده على مسح تلك الدموع الصادقة.

رغبة وشيطان

كان الغسق برماديته الداكنة المشوبة باللون القرمزي المنبعث من قرص الشمس المتعب هناك خلف جدار الأفق يتقدم في بدء وثقة وهو يقود موجات الظلام الرهيبة معلناً انتصار الليل على النهار. ولا يدري أن سويعات قليلة تستعيد الشمس عافيتها وترسل بالفجر سهماً نافذاً ينتزع النور من بين براثنه وينشره على الأرض وساكنيها أمناً وأماناً وبصراً وبصيرة. حتى تلك الساعة لم يكن الشيطان قد تمكن من تنفيذ برنامجه المأساوي. لكنه كعادته كان مصراً على النجاح ومما ساعده على ذلك ردود الفعل الواهنة التي رفضها مما جعله واثقاً بالخطة الأخيرة. بدأت القصة المأساوية بوصول (لينا) الفتاة الأسيوية ذات الثمانية والعشرين ربيعاً إلى مطار المدينة الصغيرة لتبدأ عملها الجديد كمربية للأطفال بعد ما لفظتها مدينتها الكبيرة القاسية التي لا ترحم ولا تأوي إلا الموسرين حيث الفقراء يعيشون هناك على هامشها. وبغير المال لا يملكون لقدرهم رداً أو تغييراً. كانت تعمل هناك عاملة في مصنع للملابس لا يكفي معاشها منه مصروفها مع الصغيرين اللذين تركهما أبوهما ورحل عن الدنيا تحت عجلات إحدى الشاحنات ولم يعد هناك مفر لهذه الفتاة من مواجهة الدنيا مع صغيريها في مجتمع عاصف وفظ تحكمه المادة ويكتنفه الظلم.

وابتسم القدر لها فحصلت على الوظيفة الجديدة بعدما استدانت وباعت قدر ما استطاعت لتدفع لأحد المكاتب هناك. وطأت قدميها الصغيرتين ارض المدينة الناهضة التي أفاقت لتوها من غفوة طويلة على هامش الحياة لتغيب بجسدها الصغير داخل مجتمع آخر تحكمه قيم وأخلاقيات وعقيدة لم تعشها من قبل. شعرت قليلاً بالضعف حيث تذكرت صغيريها اللذين تركتهما في كنف أمها العجوز. وسرعان ما غابت داخل البيت الضخم واستقبلتها سيدة البيت الطيبة وأشارت لها بان تبعها لترتب لنفسها غرفتها ولتستعد لمواجهة أعباء الوظيفة الجديدة.

وانساب نهر الحياة هادئاً ورتيباً في الأيام الأولى بين واجبات البيت ورعاية الصغار في حين كانت السيدة تذهب إلى عملها صباحاً ولا تعود إلا بعد الظهيرة بصحبة زوجها الذي تعود على توصيلها إلى عملها صباحاً وإحضارها ظهراً.

(لينا) فتاة نشطة أسيوية الحسن والقوام متناسقة التقاطيع مرحة ومع مرور الأيام تعودت على الجديد ولم تبخل سيدتها عليها بالهدايا حين تذهب للتسوق. كل ذلك لم يمنعها من أن تهتم بنفسها بعد أن تنهي أعمالها في وقت قصير فهي تصحو من نومها في الخامسة والنصف صباحا لتراجع جدول أعمالها اليومي حسب الترتيب من إيقاظ الطفلين لإعداد الفطور ثم مساعدة الطفل الأكبر الذي التحق لتوه بالصف الأول. وبمساعدة السيدة وتلقي التعليمات الروتينية حول المنزل وغذاء الصغير. الحياة هي الحياة بإيقاعها الأبدي الخالد والبشر هم البشر بطبيعتهم المتغيرة وصراعهم الأزلي من اجل شيء ما. تلك دائماً هي الحياة (لينا) امرأة ناضجة لم تنس أبدا أنها كذلك وهي تهتم بنفسها دائماً إضافة إلى رقتها ونعومتها. لكنها لم تكتشف أن سيد البيت وزوج السيدة الطيبة يطالعها بشغف. إلا حين تعمد لمس أناملها مرات ولاحت نظراته المشبوبة إليها حين كانت تنثني في أوضاع معينة وهي تلاعب الصغير أو تؤدي أعمال النظافة في البيت. ثم تأكدت من مشاعره تماماً حين أهداها مسجلة صغيرة ومعها بعض أشرطة الموسيقى الغربية الحالمة لتضعها في غرفتها مشيراً إليها بان تكون حريصة لو سألتها زوجته أو استفسرت رغم انه لم يكن لدى الزوجة أبداً ما يلفت انتباهها لذلك أو يعينها.

كان زوجها ابن عمها وهو أمر تقليدي في بلادنا لا غرابة فيه. لكن الغريب في الأمر هو الفتور الملحوظ بين الزوجين وهو فتور طبيعي فرضته السنوات السبع التي مرت على زواجهما. لم يعد هناك اهتمام بالشكليات البسيطة التي تعد من صلب أساسيات الزواج وهي التفاصيل الصغيرة في الحياة الزوجية التي لم يعد هناك معنى لذكرها. وبدأت (لينا) تحلم بالوهم الذي لن يتحول أبداً للحقيقة.

كانت الشجيرات الصغيرة والأعشاب المغروسة على ارض الحديقة تغتسل بندى الصباح فيما كانت خيوط ذهبية من نور الشمس تتسلل لتفرض نفسها على الكون مانحة إياه النور والدفء والأمان حسب المنظومة الإلهية العظيمة حين بدأ الرجل يستعد لإدارة محرك سيارته استعدادا للذهاب برفقة زوجته والطفل أتت (لينا) لتضع أغراضا بالسيارة ثم استدارت ضاحكة مهرولة إلى داخل المنزل.

الثامنة والنصف صباحا وقت جيد لإحضار بعض الأوراق من المنزل. الجو هادئ تماماً إلا من نغمات موسيقية حالمة أضفت على العام داخل المنزل إحساسا بجوانب أخرى من الحياة. الصغير نائم بعد أن تناول وجبته. (لينا) تتبهج برؤية سيدها وتتبادل معه كلمات ضاحكة. يدخل إلى مخدع زوجته ليحضر أغراضه من الخزانة لا يستطيع أن يفتح بابها وتأتي (لينا) لتساعده وفي لحظة استيقظ الشيطان وغابا معاً في نشوة شيطانية عارمة.

أفاق بعدها الرجل .. كان في عالم آخر ومكان وزمان آخرين. ووقعت (لينا) بخبرتها وأنوثتها وعطشها وثيقة رغبة عارمة لا تنتهي ووحش لا يشبع. استقل سيارته عائداً إلى عمله في حالة غير عادية كان يردد بينه وبين نفسه أنها رائعة.. إنها شيء لا يصدق. وكان يفيق للحظات على واقعه الصعب وضميره الذي يستيقظ لكن (لينا) بعطشها ووحشيتها الجنسية الجارفة الملتهبة وخبرتها العالية في مكافحة مكامن المقاومة فيه أضعفت قواه في مواجهة علاقتهما الآثمة. وعادة يستحيل الرجوع أو يصعب عند لحظة السقوط.

واستمرت العلاقة وتحولت إلى عاطفة ملتهبة وحلقت سحب الأخطار فوق الأسرة واشتعلت المشاعر بالخوف والرهبة حين شعرت (لينا) أنها قد تكون حاملاً وبترتيبات سريعة سافرت لينا ببعض من المال ووعد بالسفر إليها وتوالت رسائلها إليه وكان آخرها مع اقتراب الوضع ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك ومضت الحياة كعادتها كنهر متدفق لا يتوقف حتى يصل إلى نهايته المحتومة. شهور وسنوات يحاول أن ينسى لكنها تناديه من هناك بلغتين. العاطفة والأبوة. لا يعلم شيئاً ويحاول أن ينسى لكن الضمير أصبح شمساً تضيء قلبه وعقله وأحاسيسه ويقظة

المجتمع وعنفه. تقاليده تقف حاجزاً ضخماً . وأسرته الصغيرة التي تكسرت عليها كل موجات الضمير المضيئة .. نعم! .. لا يستطيع فهناك مجتمع وأسرة . وقوانين وعقيدة.
حاول مرات أن يفكر وأخيراً استسلم تماما لسياط الضمير الهاوية على نفسه وروحه المثقلة. عشر سنوات كانت كفيلة بتخفيف الألم لم تنسيه أن له بنتاً أو ولداً هناك في تلك الأرض البعيدة مجهولة المصير.
اخذ ينظر إلى صورته في المرآة وهو يرتدي ملابسه استعدادا للخروج من البيت وحدق برهة وهو ينظر إلى اللون الأبيض الذي اجتاح شعره ثم اقتحمت عليه المرآة صورة ابنته الصغيرة ذات التسعة أعوام جاءت باكية تشكو إليه قسوة أخيها. احتواها بين ذراعية في حنان وربت على رأسها ثم مسح دمعة على خدها في الوقت الذي لمعت فيه عيناه بفعل الدموع المنسابة من مقلتيه.
مرارة النـــــدم
ما أغبى الإنسان وما أشقاه حين ينسج بيديه شباك تعاسته.. وما أغرب النفس البشرية حين يصيبها التحجر وتنتزع منها أثمن وأغلى ما تملكه. لحظة حب راق وعاطفة أمومة وبنوة دافقة ودافئة تمنح الحياة دفئها وأمانها.
الندم لحظة صدق يفيق الإنسان بعدها من غفوته أمام الحقيقة العارية لتنصهر روحه ونفسه في أتون من الندم وتغتسل في لهيب من العذاب.
الإنسانية مظلة يحتمي بظلمها البشر وأقوى عناصرها المشاعر الخصبة الراقية وأسمى ما فيها حالة حب خالد وعنيف بين أم وابنها أو بين والد وولده.. حالة حب لا تموت ولا تضيع لان ضياعها يعني النهاية.. يعني الجحيم.
فرضت الكآبة ظلها منذ الصباح الباكر على من في المنزل بعد أن هوى الشاب ذو الثانية والثلاثين ربيعاً مغشياً عليه حين صكت أذنه كلمات مؤثرة وعبارات حزينة من واحدة العاملات في بيت العجزة والمسنين وهي تصف له حالة أمه وكلماتها قبل أن تسلم الروح ثم أرفقت حديثها بعتاب مهذب وأنهت المحادثة.
قبل خمسة عشر عاما رحل الوالد فجأة تاركا زوجته في كنف الابن الذي كان قد أدرك مرحلة الرجولة وبنتاً واحدة تزوجت قبل وفاته وانتقلت مع زوجها إلى بلد مجاور حيث يقيم زوجها.
الابن في عمله والأم في المنزل أو مع رفيقاتها من نسوة الفريج تزهو بابنها وتترقب وصوله بشغف وهي تعد العدة لتختار له شريكة حياته والحياة تمضي ملونة ومزدانة بنسمات المحبة والمودة والتراحم التي كانت تحكم العلاقات بين البشر في مجتمعنا.
رياح الخير من بدايتها تهب حاملة مع نسماتها الطيبة رائحة البترول، لا بأس كل شيء يسير إلى أفضل ووجه الحياة يتغير ويحمل أيضا تغيراً في جوهرها لكن إلى أسوأ.
كل ما تركه الوالد من عقار أصبحت قيمته ترتفع يوماً بعد يوم رغم صعر مساحته والأم تملك أيضا بيتاً صغيراً وعتيقاً لكنه أصبح في دائرة الأسعار المرتفعة. كل شيء على مايرام- الحياة تأخذ طابعاً آخر. تغلب فيه المادة على جوانبها الإنسانية وتتسلل برودتها إلى قلب الحياة الدافئ بالمشاعر والحب الفطري.
الأم لا تفكير لها إلا في ولدها أما ابنتها فهي سعيدة مع زوجها وأولادها تأتي للزيارة على فترات متباعدة لكنها طيبة على كل حال. الابن هو محور الاهتمام ومسؤوليتها اختيار شريكة حياة مناسبة. ويتم الاختيار ويتزوج الابن.
وتستمر الحياة كالعادة بين ليل ونهار. سعادة وشقاء الجميع في خير ونعمة والابن يرزق بالأطفال من زوجته والأم العجوز تحتضن بحنانها الصغار وتربيهم تخشى عليهم من نسمات الهواء. تعطيهم وتدللهم وتستمر الحياة وتنساب الأيام والعجوز مازالت تحترق وتعطي والأيام تأخذ من صحتها وعافيتها. كانت تحترق وهي راضية حين ترى الصغار يكبرون وكانت زوجة ابنها تقسم وقتها بين البيت والسوق والأهل مطمئنة إلى أن أولادها في رعاية جدتهم والعجوز تئن من ثقل الأيام على كتفيها وظهرها لكنها لا تبالي.
لكن للعمر كلمة أخيرة ولكل بداية نهاية. وأمراض الشيخوخة تتوالى والحركة تبطئ ثم تتوقف في عجز واضح. ومازال الحب خالداً وشاباً يافعاً في قلبها مازالت تحترق وتلتمس لولدها الأعذار حين يغيب عن رؤيتها يوماً وزوجته بدأت تأفف في تبرم واضح من وجودها في المنزل حيث أصبحت عبئاً يتثاقل يوماً بعد يوم إلى أن كانت الواقعة الكبرى.
العجوز تئن من الآلام على فراشها وتطلب ولدها وزوجة الابن ضاقت من إلحاحها فكانت الكلمة التي أصابتها وذبحت مشاعرها وكان الشلل.
وصل الابن إلى المنزل وحكت له زوجته بطريقة جيدة كيف أن أمه مريضة وفي حالة خطيرة فدخل عليها في غرفتها واحتضنته عيناها والدموع تملؤها وخلال دقائق كانت سيارة الإسعاف تحملها إلى المستشفى لتبدأ بعدها المرحلة الأخيرة في مأساة الأم.
الأطباء فعلوا ما بوسعهم والنتيجة سيظل الحال على ما هو عليه. وكان الخيار الأخير حيث العناية والرعاية بيت العجوز والمسنين .. لا بأس.. فهناك الرعاية الكاملة والعناية الطبية الممتازة.. هكذا اجمع الكل رأيهم وأولهم الزوجة.
مضى من الزمن شهر والابن يداوم أسبوعياً على زيارة أمه وفي كل مرة يدلف إلى غرفتها تحتويه عيناها المتعبتان الطيبتان ويجلس إلى جانبها يحادثها وهي لا تستطيع الرد فقط تكلمه بعينيها وقلبها العليل.
الشهر الثاني اصطحب معه الصغير لتراه فكادت تنطق من سعادتها وابتل وجهها بالدموع التي انسلت بين تجاعيد وجهها. وبللت أيضا جبهة الصغير وهي تقبله. وثارت زوجته لاصطحابه الصغير إلى المستشفى. تكررت الزيارات ثم بدأت مشاغله تنسيه مواعيد زيارتها إلى أن توقفت الزيارات تماماً. وعاشت العجوز على أمل أن يفتح الباب مرة لتراه أمامها ولتكتحل عيناها برؤيته وفعلاً فتح باب الغرفة ذات صباح لتجده أمامها بمفرده وهو يبتسم ومال برأسه على صدرها لتقبله بعد أن أشارت وأومأت له برأسها. ثم اخرج من ملابسه ورقة ومحبرة

وطلب منها أن يساعدها وتناول معصمها اليابس بين أصابعه ووضع بصمة إصبعها كل ذلك وهي تحتضنه بعينيها في حنان بالغ وعتاب مرير.
لم تكن تعرف ولا تعلم بأنه جعلها توقع على أوراق تبيح له حرية التصرف في ممتلكاتها وهي أيضا في داخلها لا تريد أن تعرف أو تعلم فقط كانت تريد لقلبها أن يرتوي برؤية أحفادها.
سحب الباب خلفه في هدوء وغادر مسرعاً وغاب في زحمة الحياة.
وتتوالى الأيام ويضيع الابن في متاهات زحامها ومشاغلها وتتسلل برودة الحياة الجديدة إلى قلبه ثم مشاعره لينسى في غمرة انشغالاته أمه التي تسكن دار العجزة والمسنين. أحياناً يتذكر وتهاجمه الذكرى بعنف لكنه سرعان ما ينسى.
وتظل الأم هناك بين مقعدها وسريرها تنتظر من يروي قلبها أو يكحل عيونها يكاد قلبها يقفز حين يدور مقبض الباب أو تسمع وقع أقدام تقترب ثم تسيل دموعها ويهتز جسدها النحيل الواهن في نشيج متعب يكسر القلوب.
ويزداد مرضها قسوة وشدة وتقترب النهاية وعينيها معلقتان بالباب ولا تجد من يؤنس وحدتها إلا الممرضة التي تحاول جاهدة أن تبلغ ولدها بحالة أمه في الوقت الذي كان الابن يعيش حياته كما ينبغي.
أفاق الابن وعاد وعيه وتملكته حالة من الذهول وهو ذاهب ليلقى نظرته الأخيرة على أمه التي ذهبت وعينيها جائعتين لرؤيته. ثم عاد ليتقبل العزاء

بيوت من ورق

حين يفقد الإنسان حاسة التوازن في حياته ويترك نفسه ليضيع في دوامتها بين العمل والطموح وينسى في غمرة انشغاله بها هدفها النهائي ونتيجتها التي يبتغيها وهي أسرته وأبنائه يجد نفسه فجأة كمن يتقدم خطوة إلى الأمام ثم يتراجع بعدها ألف خطوة حين يخسر احد أبنائه أو أسرته حيث هم الهدف النهائي لطموحه ونجاحه. وعمر الإنسان محدود فالزمن وطاقته محدودة القوة حيث يجد نفسه في لحظة واقفاً أمام جدار السن والموت. وحيث يتحول الأمل إلى سراب والحقيقة إلى وهم.
هبطت الطائرة واستقرت عل المدرج وبدأ الركاب يغادرونها بحفظ الله إلى مبنى المطار لإنهاء إجراءات الوصول ثم الانصراف تباعاً كل إلى وجهته فيم كانت السيارة السوداء الفارهة تتوقف أمام مدخل الوصول ليغيب داخلها احد الرجال مع حقيبته الصغيرة.
تبادل الرجل كلمات قليلة مع السائق الأسيوي اخلد بعدها للصمت إلى أن توقفت السيارة أمام المدخل الرئيسي للمنزل حيث غادرها مسرعاً إلى الداخل ليحتضن الصغيرة التي استقبلته في فرحة غامرة. قبلها وربت على رأسها ثم التفت إلى حيث تقف الأم ورأى آثار الحزن والقلق بادية على قسماتها. أشار عليها أن تتبعه إلى غرفتها.
جلس الرجل بعد أن تحرر من بعض ملابسه وهو يستمع الى زوجته التي بدأت الدموع تنهل على وجنتيها وهي تحكي على مسامعه حالة الابن الأكبر المسجي على سريره بالمستشفى في حالة غيبوبة بعد ان تناول جرعة كبيرة من المخدرات حصل عليها من احد رفقاء السوء.
حملق الرجل ذاهلاً في المرأة التي بدأت تنتحب بصوت مخنوق لم يكن ينظر لها بل كان يحاول البحث عن الخطأ في الجانب المظلم من ذاكرته.
كان يسأل نفسه في حوار صامت لم كل ذلك في أسرتي فقط؟ أحداث متلاحقة سيئة في معناها وجارحة في ذكراها. كل شيء نملكه المال والصحة. الشركات، أرقام البنوك، لا طلب يرد لأي من الأولاد. أفاق الرجل فجأة واسترد وعيه الغائب تحت ظلال الذاكرة ليسأل امرأته عن كبرى بناته فأشارت له بأنها في غرفتها.
ساد الصمت برهة من الوقت إلا من نحيب خافت صادر من الزوجة كسره الزوج بوقوفه ثم توجه إلى غرفة البنت الكبيرة طالبة الجامعة.
كانت الفتاة في غرفتها تعيش عاصفة من التوتر والانفعال. فرغم الحياة المرفهة المعززة بكل الإمكانيات المادية إلا أن غياب الأب شبه الدائم عن الأسرة وبالتالي غياب دوره الفاعل في حركة وتوجهات الأفراد وخاصة الدور الرقابي والتوجيهي فتح الباب على مصراعيه لكل من أفرادها للتصرف حسبما يشاء وخاصة الولد الوحيد الذي أفسده التدليل وحصوله على المبالغ التي يطلبها وطلباته التي لا ترفض في غياب رقابة أسرية فاعلة وتوجيه أبوي سليم. في غياب كل ذلك كان المناخ صالحاً لالتفاف رفقاء السوء حوله. وحلفاء الشيطان الذين زينوا له طريق الشر ومهدوا له سبل الضلال والانحراف فكانت النتيجة جرعة زائدة من المسحوق الأبيض أودت بوعيه وتقارير الأطباء تقول أن النتيجة تدمير لخلايا المخ وشلل بالأطراف.
الأب يستمع إلى الطبيب وهو يتماسك في صعوبة واضحة وكان القرار السفر إلى أوروبا.
تمت الاتصالات في سرعة وانتقل الولد إلى احد المستشفيات الشهيرة ليشرف على علاجه لفيف من كبار الأطباء.
انتقضت فترة ليست بالقصيرة احترقت الأسرة خلالها بنار فتاها القابع هناك بين الأمل والرجاء.
مع اقتراب الربيع كانت الأخبار تأتي مطمئنة ومبشرة بالخير ورغم تأجيل حفل الخطوبة للفتاة ممن ارتضاه قلبها وعقلها معاً إلا أن الشمس القادمة إلى سماء بلادنا كانت تحمل الخير وتبشر بالربيع وطقسه النقي الرائع.
حين لامست عجلات الطائرة ارض المطار كانت الفرحة طاغية بالعودة التي صاحبها الشفاء وفي البيت الكبير كانت فترة النقاهة ميزانا للحساب ومراجعة النفس والتئام شمل العائلة.
دق الهاتف ليحمل مزيداً من الأخبار السعيدة للأسرة حيث كانت اللمسات الأخيرة لحفل الزواج على وشك أن تتم في حين حرص الوالد على تخفيف الارتباطات من على كاهله بالنسبة لعمله مؤمناً ان العقل والكفاح يصنع المال بنفس القدر الذي تصنع الابنة الحياة.

دمــوع الغفـران

أنهى المسافرون إجراءات الجوازات في هدوء وبدأوا يغادرون المطار لينطلق كل إلى وجهته في هذه المدينة العتيقة ذات الطراز المعمارية الآسيوية والمعابد البوذية ذات الأسقف المائلة التي تثير في نفسك شعورا قويا بأنك انتقلت إلى بلاد أخرى وثقافة وشعب آخر .

كان هناك رذاذ خفيف يداعب المارة ويتسلل من النافذة الأمامية للسيارة ليستقر بفعل حركتها على وجه الجالس في مقعدها الخلفي ويبدو أن الراكب أسعده أن يتلقى مداعبة الرذاذ والهواء لوجهه وشعره ، اخترقت السيارة شوارع المدينة براكبها واستقرت أخيرا أمام احد الفنادق الضخمة التي يستطيع روادها أن يعيشوا أجواء بلادهم ويتناولون فيها طعامهم المفضل حتى الجلسات العربية والجراك.

ألقى الرجل ذو السحنة العربية بجسده على السرير ليحصل على قسط من الراحة يعوض به إرهاق السفر ، راح بعدها في نوم عميق وإغفاءة هانئة .

لم تكن المرة الأولى التي يهنأ فيها الرجل بإغفاءة في هذه المدينة الشاحبة في أضوائها وأخلاقياتها بل كانت للمره الرابعة او الخامسة .

كانت المدينة تثيره كلما زارها .. مرة تجددت فيه الرغبة في زيارتها مرة أخرى ووصلت به الرغبة إلى أن أصبح يتمنى أن يعيش بقية عمره هناك لولا أن هناك ما يمنعه ، فهناك في بلدة زوجة وأولاد أربعة .

شاب متزوج ويعيش في منزله وكبرى بناته تعيش مع زوجها وتبقى هنا الفتاة ذات العشرين ربيعا والولد الصغير الذي لم يتعدى العاشرة من عمره بعد .

بين الكؤوس المترعة والأجساد البضة الصغيرة المدربة مساحة يكتفي بها الشيطان ليلهو ويستمتع وينسج المزيد من شباك الضلال حول بني البشر ليفي بالقسم الذي قطعه على نفسه أمام الله حين أبى واستكبر .

الأيام تتوالي وتتسرب أمام عينيه والساعات تمر حاملة في كل ثانية من ثوانيها متعة ونشوة يتمنى لو توقف الزمن عندها ، أحابيل الشيطان كثيرة ولها بريق يخبو بجانبه نور الحقيقة حين تعمى القلوب وتيبس المشاعر .

الحوار متصل بين الرجل والشيطان عبر الأجساد البضة والأقداح البلورية والثمار المحرمة بالفردوس الشيطاني الزائف.

كانت الفتاة هادئة ورقيقة زادها الجمال الآسيوي الأخاذ رومانسية حالمة وأضافت لها الثقافة والتراث البوذي بعدا آخر في معاملة الرجال .

وهام بها الرجل وهو يجتاز خريف العمر ببطء رافضا الاندفاع صوب الشيخوخة قبل إن يثمل من نزوته وينهل من متع الحياة ضاربا عرض الحائط بالقيم الدينية والأخلاقية والأعراف التي تحكم مجتمعنا.

وتتسرب الأيام ويشعر بأن أجازته قاربت نهايتها وسيعود مرة أخرى إلى بلدة تاركا سعادته ومتعه .

وهوى قلبه وجسده وراوده الشيطان عن أحبولته مزينا إياها ولم يفكر كانت لحظة الضعف القاتلة التي يتربصها الشيطان ليضرب ضربته ، فالأمر بغاية السهولة واليسر .

أوراقها وتأشيرة دخول لمربية بعدها لا حاجة إلى سفر أو مشقة وتكفل الشيطان بعدها بالباقي .

وصل الرجل إلى بلده حاملا ذكرياته في عقله ورغبات ربيعية حلت في غير أوانها ونزوة مراهقة جاءت متأخرة طمست البصر والبصيرة بغلالة وردية نسجها الشيطان بمهارة مستغلا الضعف في نفس الإنسان وغياب إرادته وانهزامه أمام الشهوات .

الزوجة في منزلها بملابسها الخليجية التقليدية توزع وقتها بين بيتها وأولادها وجلسات الجارات الطويلة ومواضيعها المعروفة لم تحاول الزوجة أن تغير من شكلها وملابسها وتتزين خصيصا لزوجها لتواكب التغيرات المادية التي انعكست على نفسية المجتمع وبالتالي على زوجها، فالرجال يسافرون إلى بلاد أخرى يرون فيها الأعاجيب والألاعيب والابنة تعيش عالمها الوردي الخاص بين الموديلات الحديثة للملابس والفيديو والتليفون وليس أكثر ، إجازة الصيف تنتهي بعد أيام قلائل بعدها تبدأ لمدارس والخادمة الموجودة تبدأ معها المشاكل من اجل إجازتها لتحل نهائيا تاركة الأسرة بين الرضا من الأب والغضب والحنق من الزوجة ، ويتطوع الأب لإحضار خادمة بسرعة وتنتهي الإجراءات في سلاسة ويسر ، الملحق الخارجي يعد للخادمة الجديدة وما هي إلا أيام تصل الخادمة لتريح سيدة البيت من عناءها .

وصلت الخادمة وفرحت بها الزوجة حيث الحياة بلا خادمة في مجتمعنا يعني أن أمور النظافة وترتيب المنزل والمطبخ تصبح من نصيب الزوجة وهي أمور أصبحت لا تطاق ناهيك عن أمور الوجاهة الاجتماعية والمظاهر .

وبدأت الحياة الجديدة تأخذ الطابع الاعتيادي وانتظمت زيارات الرجل لخادمته في مخدعها في مواعيد منتظمة وأيام محدودة كل شيء رائع ، كل ما لا يجده الرجل عند زوجته يأخذه بلا حساب في مخدع الخادمة ، وكان الهزيع الأخير من الليل يحمل أنساما ملوثة بأنفاس العصاة الآثمة ويوما بعد يوم كانت الصداقة تزداد بين الفتاة وخادمتها وفي غياب الاهتمام من الأب والأم لم يكن هناك بد من صديق فكان التليفون خير مؤنس للوحدة لأنه يحمل عبر أسلاكه الكثير مما يشتهيه سن المراهقة وجاءت الخادمة لتكون الصديق الآخر والصديق الخطأ كذلك .

كان الربيع التالي يودع موقعه على خارطة الفصول وبالتحديد كان أحد أيام فبراير حيث سولت له نفسه وعلى غير موعد معها أن يزورها وكانت الثالثة صباحا بينما حبات المطر النقية تذرفها السماء كالدموع حزنا على السقوط الإنساني في هاوية الخطيئة محاولة تطهيره من دنسها .

كل شيء حوله كان يلفه السكون إل صوت المطر المتساقط على الزجاج وأجهزة التكييف .

أنسل بهدوء وهو يحمل مفتاح غرفتها الإضافي الذي يحتفظ به دائما ، اجتاز المنطقة الفاصلة بين البيت والملحق الذي توجد به الخادمة ، وحاول أن يفتح الباب ولم يفلح يبدو انه مغلق من الداخل لا بأس فهو ليس الموعد حاول مرة أخرى أحس بحركة داخل الغرفة لم يسمعها جيدا نظرا لتساقط المطر ، انتظر لحظة علها تفتح الباب ، أحس بالتوتر يصيبه استدار ليعود سمع صوت أقدام آتية من ناحية غرفة السائق

إنها هي كانت في غرفة السائق تجمد في مكانه ، إذا من بالداخل وفجأة سمع صوت المزلاج يفتح وبعد برهه كأنها الدهر فتح الباب وكانت الصدمة هائلة ، استند على الجدار في حالة إعياء وانهيار وبدأ شريط من الصور يتوالي على ذاكرته .
الشاب يتوسل ثم يرى أمامه رجلا بلا قوة ثم تسرب من الباب الخارجي في سرعة وهدوء ، حالة من الذهول الكامل والصمت والابنة ترتجف من الخوف والدموع تتجمد في عيني الاب وركبتاه تصطكان في تخاذل لا يقوى على الوقوف ، يتهاوي جالسا في مدخل غرفة الخادمة ، الشرف ، العار السمعة ، الفضيلة ، الرذيلة ، الشيطان .
إذا هي النهاية وفجأة ينساب صوت المؤذن داعيا الناس للوقوف بين يدي الله - الله اكبر - الله اكبر - اشهد أن لا اله إلا الله وان محمدا سول الله ، تتسلل الطمأنينة إلى قلبه ، انه يسمع هذا الأذان للمرة الأولى منذ زمن بعيد يحتوي ابنته بين ذراعيه وينفجر في البكاء، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، يتوقف البكاء ويدفع أبنته برفق داعيا إياها للذهاب إلى غرفتها بسرعة .
يساوره إحساس بأن يغتسل من داخله ، خرج من منزله بعد أن توضأ وما أن أصبح في الطريق إلى المسجد حتى أن نور الفجر يسحق يخيوطه الأولى أمواج الظلام الباردة العاتية ، وفي الصف الأول كان هناك نشيج مكتوم صادر من قلب عائد من غربته الويلة وجاءه صوت الإمام (أنها لا تعمى الإبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) صدق الله العظيم
ثم خرج من المسجد بعد أن بدأت خيوط الشمس تغزو وجه الأرض وذهب إلى بيته ليمسح دموع ابنته التي كانت تتساقط ممزوجة بشهد الفضيلة والطهر .
عودة الضميـر
حين تتهاوى أقنعة الزيف وتنقشع غمامات الضلال وتغتسل النفس مما علق بها من الإفك والبهتان التي تفرضه عليها شهوة عابثة أو نزوة عابرة تصبح الحقيقة عارية وناصعة كضوء الشمس في رابعة النهار وتهوى الشياطين محطمة الرؤوس والإرادة حاملة معها أدوات الزيف والضلال وكل دعاوي الإفك والبهتان .
ويواجه الإنسان نفسه مواجهة قاسية قد تعصف بكيانه فتودي به أو تمسي رصيدا من التجربة الإنسانية الحية يضاف إلى الرصيد الإنساني ككل ، ليتعلم الإنسان ويملك بها مصباحا ومشعلا يضيء له الطريق بعد أن ضل السبيل ، وليس أقسى على الإنسان من تجربة (عفوا نزوة أو شهوة) تردي بسببها في مهاوي الردى أو سلك بها سبل الهلاك أو آذي بها آخرين من البشر وأوردهم موارد الدمار محطما أسرة هنا أو ملحقا العار بأسرة هناك حين يتملكه الشيطان ويغلف قلبه بالإثم والضلال ، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعد الظهر حين تناول بيمينه سماعة الهاتف وبدأ يدق على الأرقام التي حصل عليها من الملف الخاص بها في العمل مصرا بينه وبين نفسه على ان رفضها لمحاولاته التقرب منها يعد أهانه له رغم انه يعلم يقينا أنها سيدة متزوجة ولها طفل وان رفضها له ليس أهانة له بقدر ما هو حفاظا على شرفها وعقيدتها وبيتها .
كان الشيطان يزين له سبيل الغواية والإثم وكان هو ينقاد بصورة حيوانية وبلا أدنى تفكير في السلوك أو النتيجة ، كانت حياته خاوية من كل شيء ومن كل ما هو مفيد فلا كتاب يقرأه ولا موسيقي عذبة راقية تنساب إلى أذنه ليسمعها أو ندوة فكرية أو دينية ، تخيل أن ما ورثه عن والدة من أموال وعقار يكفي ليحل محل ذلك وان وظيفته التي حصل عليها بعد الثانوية ثم ترقيته إلى رئيس القسم بعد ذلك بمؤهلاته العظيمة في النفاق والوصولية ما هي إلى شكل اجتماعي يبرز فيه مواهبه في المظهرية والتسلط على مرؤوسيه في العمل والتعالي على من هم دونه ماديا لا يطيق أن يمدح آخر أمامه أو يذكر بخير .
وكان المنافقون يعلمون كم يكون سعيدا حين يطريه احد ولو على سبيل المجاملة ، وكانت هي في قمة حسنها وجمالها ونضوجها - العشرين في عمر المرأة سن يفيض بالعطر والسحر ، كانت عاطفة الحب النقي الطاهر تجمع بينها وبين أبن عمها ذلك الفتي الواعد وكانت نهاية حبهما زواجا أثمر طفلا جميلا زين بيتهما باللعب والصراخ ورأت هي أن تساعد زوجها وان تلتحق بعمل تفيد به نفسها وبيتها وكانت أن التحقت بوظيفة هناك ، وشاء حظها العاثر ان تكون في نفس المكان الذي يعمل به ذلك الوحش الآدمي الذي لا يعرف للرحمة سبيلا ، لاحقها بعينه ولسانه لكنها صدته بأدب وحياء عله (يرعوي) ويفهم - لكنه تمادى وأصر على ما أراد ، بدأ يلاحقها في بيتها عبر الهاتف ولم تشأ هي أن تتسبب في مشكلة لزوجها فلم تخبره بما كان من أمره ، وتصور الوحش بخياله المريض أن سكوتها وصمتها يعنيان بدء انهيار القلعة ، فبدأ يزيد من جرعات فظاظته ورذالته وهناك بين أركان منزلها وفي زواياه بدأ الشك يتسرب إلى عقل وقلب الرجل وأخذت الوساوس والهواجس تعصف بمشاعره وتتلظى نارا حارقه في شرايينه وذهب عقله يراجع كل التفاصيل والتغيرات التي طرأت على زوجته وشريكه عمره منذ التحقت بعملها ، كان رنين الهاتف كأنه طلقات رصاص تخترق جسده ومشاعره وخيم جو من الحزن والكآبة على المنزل وانعكست انفعالاته وحالته النفسية على حياتهما فأصبح الحب الكبير في مهب الريح وأمسى نعيمه جحيما لا يطاق وأصر الزوج على أن تترك عملها وذهبت كل محاولاتها لفك طوق عناده سدى .
وظلت هي على صمتها خشية أن يتورط زوجها في مشكلة وأيضا خوفا على الفضيحة ، وهناك كان الفتى العابث مازال يمضي وقته بين العمل والنوم نهارا والمجون والعبث ليلا إلى إن اقترح احدهم في ساعة متأخرة من الليل الذهاب إلى إحدى المزارع في خارج المدينة حيث الجو وسحر الطبيعة وهدوء المكان ، وشاء القدر أن تصطدم سيارته بأحد الإبل الشاردة التي كانت تقطع الطريق .
وتوقفت الحياة لحظة أفاق الوحش بعدها ليجد طاقم التمريض ملتفا حوله والآلام تمزق جسده داخل غرفة الإنعاش ثلاثون يوما كانت كافية لصحوة الضمير وعودة الإرادة والعقل وكانت كافية أيضا لتزيد الهوة بين الزوجين تباعدا وعمق الشرخ بينهما ، وتوافد الزوار من الأهل والزملاء وعلم من خلال الزملاء الذين يزورونه عما تعانيه بسبب ما اقترفت يداه بحقها ، وانتظر حتى انصرفوا واستدار في صعوبة

واضحة ليتناول الهاتف ويدق رقمها وجاء صوت الزوج وكانت في غرفة الطفل حين فتح زوجها الباب ونظر إليها نظرة كانت كافية لان ترمي بنفسها بين ذراعيه وكان عتابا مضمخا بالعطر .
ودارت عجلة الأيام ليخرج الفتى بعدها من المستشفى على كرسي متحرك وهو يحتضن مصحفا صغيرا وقلبا مغسولا بقسوة الندم .

وصدق الله تعالى إذ يقول
{إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}
٨

رغبـــــة
كانت حبات المطر تلثم زجاج النافذة وتتقافز على الإسفلت في تناغم شجي فيم كانت الشمس منهزمة خلف غيمة رمادية ضخمة تسللت وظللت وجه الأرض وأخذت تقذف ما بجوفها وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة ، وكانت الأرض بما عليها من البيوت والشجر والشوارع والبراري الموشاة بالعشب والزهور مستسلمة في رضا وسعادة كأنها عاشقة كانت تنتظر حبيبها على أحر من الجمر فلما أتاها استسلمت راضية بين يديه وغابا معا بين قسوة العطش ولذة الارتواء .
ساورني شعور غامض لم أدر له كهناً أو تفسيرا ، ربما كانت السعادة لكنها كانت مشوبة باللون الرمادي الذي ساد الطقس في تلك اللحظة ، واقتربت بوجهي من النافذة وتلامست أرنبة أنفي بزجاجها وغبت في تفكير عميق وحوار نفسي ممل . كانت هناك محكمة وقاضي يصدر حكمة على الجاني والجانية بما يتوافق مع ضميره ونصوص القوانين .
المتهم شاب اجتاز لتوه أعتاب العشرين تكاد لحيته تعطيه سنا اكبر نضر الوجه يجلس في سكونه ويغشاه هدوء قلق ، تدور عيناه بين الفينة والأخرى لتسرق نظرة هنا أو هناك كأنه لا يريد أن ينظر إليه احد أو هكذا خيل إلي .
حبات من العرق تظهر عند منابت شعره تفضح قلقه وتوتره ، ينتفض حين نودي على اسمه وسادت برهة من السكون خالها دهرا من الصمت وبدأ القاضي يسأل وجاءت إجابات الشاب لتكشف النقاب عن الحقيقة الماثلة أمام إحداقنا والغائبة أو المغيبة عن عقولنا وأذهاننا.
كانت الفتاة القادمة من إحدى دول جنوب شرقي أسيا للعمل كخادمة في احد البيوت الخليجية تفور بالأنوثة والنضارة ، أقحوانة برية لم يمض على تفتحها وقت طويل دفعها ضيق العيش في بلادها للعمل خادمة في بلدان الخليج فهجرت بلادها ورحلت صوب بلادنا حاملة في عقلها وروحها وشرايينها عادات وتقاليد وثقافة وعقيدة تختلف اختلافا بيننا وجذريا عن عاداتنا وثقافتنا وعقيدتنا ، مضت إلى عملها الجديد في همة ونشاط ، رسمت لها سيدة المنزل برنامجها اليومي بين رعاية الصغير والعناية بالمنزل وكان الشقيق يأتي لزيارة شقيقته سيدة المنزل ورأى الخادمة وبدأت سلسلة الملاطفات كل شيء مهيأ وجاهز ، النفس ، المشاعر ، المراهقة ، الغربة إلى أن انتهت في مخدع الخادمة في لحظات مسروقة ومرتبة وتكررت اللقاءات المحرمة لتذوب في أقداحها المعتقة كل القيم وتمحى خلالها الشرائع بمباركة الشيطان إلى أن أفاق الشاب والفتاة على الصدمة المروعة ، علامات حمل واضحة لا شك فيها تظهر على الفتاة وتهاجمها بوحشية - النبأ اليقين - محاولات عقيمة للحل والهروب من المشكلة ولا جدوى فالطوفان يقترب .
سيدة المنزل تحس بأن ثمة شيء ما على غير العادة واستنفرت حواس الأنثى ولم يخب إحساسها ولم يغب طويلا أيضا ، وسرعان ما رمت الحقيقة كل الشكوك إلى بحر اليقين ، لم يعد هناك مفر من المواجهة بحكمة وسرعة فالشاب أخوها والفتاة خادمتها .
وكان القرار أن تسافر بهدوء وكان جواب الفتاة هو الرفض إلا بشروط مالية لم تقبلها الأسرة وأضمرت الفتاة شيئا طوت ضلوعها عليه .
انساب صوت المؤذن لصلاة الفجر في عذوبة آتيا من المسجد القريب داعيا البشر إلى التوجه بالروح والجسد إلى الله في خشوع مقيمين لشعائرها مما أضفى على الكون في تلك اللحظة جوا روحيا من الطمأنينة والسلام ، تململت الخادمة في مخدعها ثم عاودت نومها وفجأة تذكرت أن عليها تنفيذ ما أضمرته ، تحركت في بطء واغتسلت ثم انسلت بهدوء القطط خارجة مع أول خيوط الشمس متوجهة إلى مركز الشرطة لتسجل بذلك أول تحقيق في ذلك الصباح .
كان الشرطي يحكم إغلاق باب السجن بالمزلاج بعد أن غاب الفتي في غياهبه بينما كانت الفتاة تنتظر رحلتها إلى البعيد المجهول مع جنينها ، وفي احد الشوارع القريبة كانت هناك لوحة ضخمة تعلن عن مكتب لجلب الخادمات بينما يتقدم أحدهم بصحبة ولده مجتازا المدخل ومعاتبا المسئول لتأخر قدوم الخادمة .
الثمـــن
كم هو مؤلم وجارح اكتشاف الحقيقة بعد اجتياحها ، وكم هي قاسية حين تبرز فجأة أو هكذا نتخيلها رغم إننا نعرفها ونشاهدها .
لكن هناك الفرق الكبير بين المعرفة والإيمان ، العقل يفهم ويمحص لكنه يظل في دائرة الشك إلى إن يهاجمه اليقين بقسوة ليهزه بعنف ويزيل الغشاوة التي نضعها بأنفسنا ونغلف بها بصيرتنا حتى نبرر الخطايا ونتلذذ بالشهوات .

ساعتئذ يضمد الصمت أخاديد الجراح الغائرة الدامية داخلنا ونظل ننصهر تحت وطأة عذاب النفس وسياط الضمير ، هكذا الحال دائما بين بني البشر على اختلاف مشاربهم وألوانهم والذين يسقطون أسرى حبائل الشيطان ويتجنبون سواء السبيل.
كان الجو ربيعيا وكانت هناك لسعة خفيفة باردة رغم أن الشمس كانت تحاول عبثا الاسترخاء على شاطئ الخليج بدفئها وأشعتها .
ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحا حين دخل من الباب الخارجي للمصرف واستقل مصعده ليجد نفسه بعد ذلك في مواجهتها وهو ينتظر دوره لإنهاء معاملاته .
كانت جالسة على احد المقاعد الجلدية الوثيرة في بهو المصرف كقطة سيامية وديعة بجسدها الصغير المتناسق وشعرها الناعم الفاحل المسترسل على وجهها وكتفيها بعفوية وتناسق ، ذلك النوع من الشعر الآسيوي الرائع .
كانت مقاييس الفتنة والجمال فيها تختلف عن كل المقاييس المعروفة - كانت ساحرة ، نعم ساحرة أو هكذا خيل إليه ، لم يستطع أن يبتعد عنها ببصره إلا ليتأكد من أن أحدا لا يرقبه.
كان ينتفض من داخله - وتلاقت عيونهما وتوحدت اللغة وذابت كل فواصل التاريخ والجغرافيا والعقيدة .
أحس بأن حياته الماضية انتظار ممل للقاء تأخر طويلا .
كان جسده ينتفض وهو يحتوي بنظراته ذلك الجسد الصغير والرقيق .
وأفاق اللحظة حين أحس بأن دوره لإنهاء معاملته مع موظف البنك يقترب وفكر كيف يحادثها ، أنها لحظة واحدة لو ذهبت قد لا يراها بعد ذلك .
وقرر أن يجازف فتحرك صوب مقعدها وفي يده أوراقه وجلس على المقعد المجاور لها ، وبنظرة تملؤها الابتسامة طلب إليها أن تعيره قلما ليدون بعض البيانات فأجابته إلى طلبه وتظاهر بأنه يكتب شيئا ثم قال في صوت خفيف وهو ينظر إليها .
إنه يوم جميل وطقسه رائع وإجابته بعد لحظة في صوت تحمل نبراته الكثير .
ان كل يوم أحد في بلادي جميل ورائع ، فاهتز قلبه طربا وبأصابع كانت ترتعش دون رقم هاتفه بهدوء على ورقة أمامه ثم قال وهو يعطيها قلمها شاكرا .
أن تليفوني مدون على تلك الورقة أتمنى أن تحادثيني ، ونهض ململما أوراقه واتجه صوب الموظفة لينهي عمله وليستمتع بنظرة أخيره قبل أن يغادر القاعة وليتأكد أن كانت ستأخذ رقم الهاتف .
وبعد برهة من الوقت مدت أناملها النحيلة في هدوء والتقطت رقم الهاتف وغيبتها في ثنايا ملابسها .
كان ذلك في احد أحاد شهر يناير وغادر المصرف على أثره وهو لا يصدق ما حدث من فرط سعادته .
كان قلبه يرقص داخل صدره وكانت الشمس في ذلك الوقت قد انتصرت وفرضت دفئها وأشعتها على الكون وكم كانت الطبيعة ساحرة حين كان يمرق بسيارته على شاطئ البحر وهو ينظر عبر مياه الخليج إلى الأفق اللانهائي يستشرفه وكأنه يريد رؤية المستقبل خلف حافات الأفق .
توالت الأيام رتيبة وهادئة وطال انتظار الهاتف دون جدوى كان يمنى نفسه برؤيتها في المصرف مرة ثانية لكن دون جدوى ، وبقي الأمل ، هذا الإحساس الخفي داخل النفس .
وهناك على الجانب الآخر في بلاده كانت والدته تعمل في همة لإيجاد من تشاركه حياته وأزف موعد إجازته وبعد أن فقد الأمل في اتصالها به حزم حقائبه ورحل .
أشجار السيسبان والكافور ترسم لوحة فنية رائعة بتداخلها مع أشجار التوت البري والزيزفون على ضفاف القنوات الجارية بمائها العذب والحقول الخضراء المترامية تمتد على مرمى البصر في إبداع الهي معجز وتناسق مذهل لا تكاد تسمع أثناء سيرك إلا وشوشة الأغصان بفعل النسمات الندية ا تغريد بلبل هنا ينتقل طائرا من غصن إلى آخر داعيا أنثاه إلى طعام أو مداعبة.
ويشترك الجميع في عزف السيمفونية الإلهية الخالدة مما يضفي هدوءا وسكينة على نفوس البشر هناك ، الأهل سعداء بعودة الغائب ، الأم رشحت وتم الاختيار وكانت فتاة من أسرة طيبة ذات جمال هادئ وطباع ريفية أصيلة .
وخلال أيام قلائل تمت مراسم القران على ان يكون الزفاف في البلد الذي يعمل به بعد أن يرتب أمور حياته الجديدة .
وقفل الفتى راجعا إلى عمله بالخارج وتعود الأيام تجري على وتيرتها بين العمل المتواصل والهموم الجديدة إلى أن كان مساء يوم من أيام أغسطس الحارة والرطبة وهو يتأهب لمغادرة عمله - يدق الهاتف فيرفع السماعة ليصاب بالذهول والارتباك كانت هي - لم يصدق نفسه وتأكد مرة أخرى وصفت له بيتها ولم يصدق .
دعته ولم يتردد وفي دقائق معدودة كان يدق بابها وفتحت له التقت العيون وتناثرت الكلمات على الشفاه همسا ، كانت هي رائعة وساحرة كزهرة ندية يانعة ، وكانت الموسيقى الرومانسية الحالمة تنساب من احد الأركان لتضفي على المكان سحرا خيالا ولم يفق إلا وهو في طريقه إلى منزله ولم يصدق ما حدث كان في حالة من الهدوء المشبوبة بالذهول .
ونسى نفسه وواقعة وطفقا معا يرتويان من عسل ورحيق محرم حتى غرق تماما في حبها ، أحس انه انتقل إلى الجانب الآخر من الحياة ، حقا خيل إليه انه يعيش في الفردوس .

شهور أربعة كانت حلما تمنى ألا يستيقظ بعده لكنها الأيام وتصاريف القدر ، ووصلت البرقية تحدد موعد قدوم الزوجة وذهب إلى حبيبته وصارحها وكانت ليلة حزينة اختلط فيها الدموع بظلام الليل وظهر شبح الرحيل والوداع ليعلن نهاية العالم ويجسد عذاب النفس وتمزق المشاعر ، وحين يتداخل القدر بقسوة لقتل الحياة ويطفئ بريقها .
وصلت الزوجة لتجد بعد أسبوع من وصولها رجال الشرطة بالباب يطلبون زوجها وذهب معهم ليواجه مسؤوليته عن الجنين الذي تحمله حبيبته في أحشائها .
وبدأت الزوجة تغلق حقائبها مرة أخرى استعدادا لسفر ورحيل آخر .
سقـــوط
ما أعجب الأيام حين تحاور البشر بلغة يصعب عليهم فهمها ، وما أغرب الأقدار حين تتدخل في مسيرتهم فلا يملك السوي لها اعوجاجا او المعوج لها اعتدالا ، حقا إنها إرادة الله كل له وجهة وطريق يتخيره ليجتاز عبره مخاضة الحياة ميمما شطر النهاية .
كان يجاهد في دربه يدفعه الأمل والإيمان والرغبة العارمة في امتلاك النتيجة والهدف تلك هي سنة الحياة غابرها وحاضرها وستظل إلى أن تغير الشمس وجهتها معلنة نهاية الكون المعمور ، وتظل محدودية الفكر والطموح تصور للإنسان إمكانية الفوز في معركته من يوم ميلاده حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة متناسيا أن معركته لها أطراف أخرى تكون في مجملها الإنسان أيضا بطموحه للفوز ومحدديه تفكيره وحتما يكون الفوز لطرف على حساب الطرف الآخر ، وتكون النتيجة في النهاية انتصارا ملوثا وسرابا غير ذي قيمة بالمعايير الإنسانية .
أكتوبر شهر البداية والتفاؤل ، بوابة الربيع في بلادنا خاصة في ثلثه الأخير ، الطقس المعتدل تظهر آثاره في الشوارع وعلى الشواطئ حيث المتنفس الطبيعي للناس هربا من ملل الإقامة الدائمة بين الجدران وأجهزة التكييف خلال أشهر الصيف اللاهبة ، وبينما أنا مترجل من سيارتي لإنهاء إحدى المعاملات التي لا تنتهي في احد الدوائر أتاقيته وجها لوجه صدفة وغمرتني السعادة لرؤيته بعد غيبة طالت فرضتها ظروف الحياة رغم إمكانية الاتصال السهل فهو يعمل في إحدى الوزارات - شاب متيسر ماديا من أسرة طيبة على كل حال ، أنيق في ملبسه ولاحظت بإحساس أن فرحته باللقاء لم تكن متوازيه مع العلاقة القديمة وطول الغيبة ودفعني الفضول للسؤال وكانت إجابته هاك رقم الهاتف اتصل بي لأني أريد رؤيتك الليلة وذهب كل منا إلى وجهته ولمحته يدلف مسرعا إلى باب المحكمة .
في السابعة مساء كنت اعبر حديقة منزله الصغيرة لأدخل إلى المجلس بعدما استقبلني على الباب لم يبد أن ثمة أحدا داخل المنزل وعلى الطاولة التي تتوسط المكان كانت زجاجة الخمر وإناء للثلج وقدح من الكريستال المذهب ، كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل حين كانت أقدامي تجتاز مدخل البيت متجها إلى سيارتي وأنا اردد قول الخالق: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ^
الفتي الشاب الحاصل على شهادة جامعية ينسى في غمره انبهاره بالحياة في أمريكا انه عربي مسلم فيترك نفسه لبهرجها تنتزع منه قيمة الغالية وتغطي على عقيدته بغطاء حضاري مزيف ، ونسى ان بداخله تكمن اشياء اخرى ثمينة وكنوز تتحول في لحظة إلى براكين تعصف وتدمر وتنزع تلك القشور الدخيلة في معركة نفسية ضارية يخرج منها الإنسان مصابا بجروح نفسيه غائرة قد تترك آثارها على ما تبقى من عمره ومسار حياته ، أحبها حبا ملك عليه كيانه وشاعره أحس انه بدونها لا يستحق الحياة - همساتها عبر الهاتف كانت سحرا وبلسما يضخ في شرايينه فيملؤها بأشياء لا يستطيع تفسيرها - يقول ويده تحتضن الكأس ليعانق شفتيه بين الفينة والأخرى كنت اكتفي بتلك الهمسات لاحس بان جدران المنزل تحولت إلى سبائك من ذهب وان زجاج النوافذ قد أصبح ماسات متلألئة أصبحت أحب حتى أعدائي وأتمنى لو قبلتهم أصبحت اهذى وأنا بالسيارة حتى أني كنت أفيق على ابتسامات راكبي السيارات الأخرى تعجبا من هذا الرجل الذي يضحك ويتكلم مع نفسه وكنت احزن ليس لأنهم يتهكمون أو هكذا يخيل إلي بل لأنهم انتزعوني من التفكير فيها وقطعوا حواري مع روحها وخيالها .
كانت كل ما في الأمر وأقصى ما يتمناه إنسان .
وأحست بقيمة حبه فاندفعت بكل جوارح الأنثى ومشاعرها الجياشة تفيض عليه من أعماق عاطفتها وحبها ، مسريلة إياه بعطرها الطبيعي وحنانها الأنثوي الآسر واشتدت الرغبة تأججا وتقدم بكل الثقة وتدخلت المكائد لتمنعها عنه ولم يعلم أهلها أن هناك طوفان هادرا من الحب يستطيع ان يجرف كل المعوقات الاجتماعية التي تعترض سبيله . (وقد كان)
تزوجته الفتاة رغم إرادة أهلها الذين سلموا مكرهين ثم تقبلوا الأمر برحابة بعد ذلك ، وظلا معا يلعقان العسل شهدا بلا ارتواء بعد أن بلغ العطش منهما مبلغه .
رزقا بمولود جميل وأصبح للحياة معنى آخر ولون وطعم آخرين وبدأت الصداقة بين الزوجين السعيدين تهتز حين بدأت الزوجة بحسها الأنثوي الذي لا تخطيء تشعر بأن هناك طفلا آخر لأنثى ، ثم تطور الأمر إلى أن أصبحت صورة يقينية وبدأت العاصفة .
أحست الزوجة أنها طعنت في كرامتها وفي حياتها فكل ما ضحت به ومن اجله أصبح في نظرها هشيما تذروه الرياح وكعادة الأنثى حين تمس كرامتها من أحب البشر إلى قلبها تتحول إلى طوفان من الغضب والحقد والانتقام .
كان من الممكن أن تلجأ إلى أم تواسي وتداوي أو أب يعالج ويصلح بحكمه الرجال ولكن كان ذلك ضرب من المستحيل فهي التي اختارت وهي التي فرضت وأحسنت رؤوس عائلتها ، كانت من الممكن أن تتحلى بالصبر والحكمة لكنها أحست حين استسلمت للشيطان أنها كانت تعيش خدعة كبرى وزاد الأمر سوءا أنها كانت قد باعت أهلها من اجله ،وطوت ضلوعها على ما أرادت (وكان الانتقام).
استيقظ الصديق على صوت الحبارى والعصافير وهي ترسل موسيقاها المتناغمة التي تبعث النشوة والأمل بصباح طيب إلى النفوس المتعبة والمدورة ، ولا شيء يشقي النفوس ويعبث بمحاسنها وطيبها قدر الأعمال السيئة وضبابية الجوانب الإيمانية فيها وانعدام القناعة ومحالفة الشيطان ، فتح نافذة غرفته فانساب الهواء النقي المنعش يداعب وجهه المستند على حافتها وأراح قلبه قليلا ، وشكلت شجرات الكنار مع

نباتات الزهور في الحديقة الصغيرة منظرا طبيعيا ساحرا ثم آفاق على صوت آت من الداخل تبين فيما بعد انه الصغير يلهو مع الخادمة بعد أن استيقظ هو الآخر ثم اغتسل وارتدى ملابسه بعد أن تناول رشفة من الشاي بالحليب واستقل سيارته إلى عمله .
دخل مكتبه بعد أن ألقى تحية الصباح على الزملاء في طريقه واستغرقه العمل وكعادة الموظفين يجدون الوقت اللازم والكافي للتجمع في صحبة أقداح من الشاي وفناجين القهوة وتجاذب الحديث أو استخدام التليفون وسرد الحكايات والمغامرات وكل يلقي ما في جعبته .
وهناك في مكتبه كان ذل يحدث كما يحدث في مكاتب الآخرين وكان يتأهب للذهاب إلى بعض الزملاء في مكاتبهم حين دق الهاتف وجاءه صوت أنثوي ناعم تطلب فيه زميل له فاستأذنها لحظة وناداه ليحادثها ولما لاحظ أن الحمرة بدأت تلون وجهه فهم وترك له المكتب حتى لا يضايقه وذهب ولم تكن المرة الأولى التي تطلب فتاة وفتاها عنده لكنه لاحظ أن نبرة الصوت وموسيقاه لم تختلف ولم يلق بالا ، الخادمة الآسيوية بجانب عملها تقوم بعمل السكرتيرة الخاصة مقابل منح مالية قليلة تحصل عليها بين الحين والآخر منه يدفعها إخلاصها إلى المحافظة على أسراره ويستخدمها في بعض المرات للاتصال بالتليفون حيث تتجه أشرعته .
بدأ النظام الحياتي للزوجة في التغير لم يعط اهتماماً لزينتها قبل الخروج في أول الأمر لكنه لاحظ أن الأمر أصبح خارج الدائرة الطبيعية. ثم تذكر انه حين يسهر خارج المنزل ويحاول الاتصال بالمنزل لتعليل غيابه يجد أن التليفون مشغول دائما ثم أنها لا تحاول منعه من السهر خارج المنزل أو حتى معاتبته على ذلك. حاول أن يطرد الشك الذي بدأت رياحه تعصف به فلم يستطع. انه يحبها بجنون نعم له حياته الخاصة لكن في عقيدته هذا شيء وذلك شيء آخر.
وجاء يوم خرجت فيه الزوجة لحاجة تقضيها وسال نفسه لماذا لا اجعل الخادمة تساعدني على كشف الحقيقة؟ وناداها ثم مهد الطريق بنفحة مالية جيدة وفاتحها في الأمر ثم بدأ الطوفان حين انفكت عقدة لسان الخادمة. وبدأت تروي ما جعله يعانق الانهيار. كل أقداح الخمر لن تشفي جراحك يا صديقي ولا تحزن لان ما حصدته كان من نتاج عملك.. واجه نفسه بقوة وعد إلى نفسك وربك .. الق بما في يدك من رجس وتطهر من آثامك فهناك طريق آخر يضيئه نور الحق (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) . كانت لاعتذر لها عن تأخري ولأحكي لها قصة السقوط.
سقـــــوط
بالحب الصادق يصبح للحياة طعم آخر، وبالقلوب الصافية الرقيقة والنقية تتطهر الحياة ويغتسل الإنسان من داخله حيث لا يكفي الإنسان أن يكون نظيفاً في شكله وحياته.
الجوهر هو القيمة الحقيقية للإنسان وبدونه تظلم الدنيا وتجف داخله ينابيع الجمال ويضيع الأمان ويصبح الخوف لباساً يرتديه الإنسان في هذا العصر المرتجف البارد. لا بأس ما دامت هناك بقية من أمل في أحاسيسنا الدافئة وما دام هناك ينبوع مقدس لا ينضب في عقيدتنا السمحة. إرادة الله غالبة. لكنه وهبنا مساحة هائلة من العقل والحرية التي تميزنا عن بقية المخلوقات. ومنحنا إرادة على قدر عقولنا وآدميتنا تكفينا تماماً للحركة صوب الصحيح وتجنب الخطأ لكننا نخطئ وتلك طبيعة البشر، وأحيانا لا نتراجع وحين تصير الحقيقة أمراً واقعاً يكون للندم والحزن طعم آخر في قلوبنا وكلمة حق قاسية في حياتنا. ذلك هو مجمل الأمر وغاية معناه.
عبس الحظ للشباب في دراسته مبكراً واتجه لاختيار طريقة حياته في ظل تربية سليمة من جانب الأسرة وبالطبع كانت عقليته وتكوينه النفسي على درجة عالية من الرقي والحس الإنساني المرهف مما دفعه إلى كسر وتحطيم طوق العزلة والانطوائية الذي فرضته عليه خصوصية حياة العائلة وطباعها. فحالة الأسرة المادية ميسورة وعادة كانت الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن. ضربات مالية ناجحة- عمولات - عقارات - أعمال مالية ونشاط تجاري جعل الأسرة تستقر على قمة الهرم المادي اجتماعياً -فماذا كان دور ذلك الشاب؟ الترتيب الرابع والأخير في الذكور يعني الأصغر إذا لم يتعدى الرقم ذلك. لم يكن له أي نشاط يذكر في مجال عمل أبيه وإخوانه، لكنه كان ذكياً لم يجد في نفسه هوى لأعمال التجارة والأرقام لكنه اختار عالماً اشبع نفسه وهو القراءة وشيئاً فشيئاً أصبح الاطلاع عالمه الذي يجد فيه نفسه وفجأة وقع في هواها. فتاة حسناء مثقفة ومن عائلة.
كانت الأيام تتوالى والزمن يمضي فيم كان الحب يكبر معه إلى أن أحست الفتاة برائحة الحب الكبير تلفح أحاسيسها وكان اللقاء الذي وقع فيه الطرفان على وثيقة الحب الخالدة. بعيونهما ومشاعرهما. وأصبح للحياة معنى آخر في عقله لكن كانت تؤرقه مشكلة أخرى.
كانت الفتاة تجتاز سنوات دراستها في الجامعة بنجاح وثبات وكانت مع اجتيازها سنوات الدراسة تتطوع الدنيا حولها عطراً وأنوثة وسحراً في نفس الوقت الذي كان يعاني هو من إحساس قوي يغالبه بأنها تبتعد عنه بحكم تقدمها في دراستها وبحكم التغير الذي بدأ يجتاح مجتمعنا عبر أفكار ضيقة وغبية عن عنصري الثروة والشهادة في مواضيع الزواج.
لا بأس فالتكافؤ في الزواج أمر ضروري لاستقراره ولكن أي تكافؤ. هل العقل الواعي وثقافة الإنسان وحسه ونبله تصبح أمورا قاصرة أمام شهادة جامعية قد لا يملك حاملها أي من المقومات السابقة؟ وهل تبح قاصرا أيضا حتى ولو دعمها الوضع المادي الجيد؟
إن التكافؤ في الزواج هو أمر لو تلاعبنا بحروف كلماته نكون قد سقطنا في مهاويه الداخلية. والأمر المؤسف أن الغالبية العظمى في مجتمعنا مازالت تحكمها أفكار بالية ملوثة بعادات الجاهلية التي غالبا ما تتسبب في مآسي وكوارث إنسانية وأخلاقية رهيبة وثقيلة على مجتمعنا البكر الطيب النقي.
الأم تغمرها الفرحة حين يفاتحها الابن الأصغر برغبته في الزواج وتسعد أكثر حين تعلم وتعرف من اختارها لتكون شريكة عمره. أيام قليلة تمر ويعلم بقية الأهل. النساء بالطبع هن أول من يعلمن وتلك خاصية ينفرد بها مجتمعنا العربي الإسلامي وكانت العمة في زيارتهم تاركة

وحيدها الأثير برفقة إخوته البنات في المنزل لتقضي مع شقيقها بعض الوقت، ولما أزف موعد عودتها كان على الشاب أن يوصلها بسيارته أو هكذا شاءت الصدف والظروف.
كان يتبادل الحديث مع عمته بالسيارة واخذ الحديث يمتد حتى وصل إلى نقطة زواجه من قريبتها بالطبع وحين فاتحها بالأمر كانت إجابتها له صدمة أفقدته مشاعره لبرهة وأحس كأنه يهوي من حالق إلى بئر عميق وأصابت البرودة أطرافه وساوره شعور هائل بالهزيمة والإحباط وحاول بكل ما أوتي من قوة أعصاب أن يبتلع الدمعة في تماسك.
كان يحس في الفترة الأخيرة أن هناك شيئاً ما ليس طبيعياً يتدخل في نسيج العلاقة بينه وبين معشوقته. اخذ يتذكر كل كلمة وكل حرف بينهما خاصة في الفترة الأخيرة ثم اخذ يمنح الكلمات كل التفسيرات التي اخترعها عقله.
سامح الله عمته لقد جرحته في مشاعره وطعنته في قدراته او هكذا تصور حين قالت له (أنت لا تستحق لأنك لا تملك شهادة مثلها. ابحث عن أخرى تناسبك) عاد إلى منزله مكسور الخاطر مجروح القلب. أحس انه قبض السراب وعانق الوهم حين أحبها. لكنه سرعان ما تفهم الوضع وعايشه وكان ذلك أمرا لابد منه. وتمضي الأيام وتتوالى الأحداث وتتحدد المصائر والكل مازال يلهو بالبعض ولا شيء يتغير قط الأشكال والمظاهر. لكن تحت كل ذلك تكمن أشياء أخرى حقد وحب، رغبات، مبادئ ومشاعر مختلفة.
يكبر الصغير وتكشف لوحات الزمن المختفية في ثنايا المستقبل عن الحكمة الإلهية العظيمة ويتذكر الشاب ابتسامة عمته وهي تجلده بكلماتها متشفية فيه في الوقت الذي يكن الحب للجميع تهاجمه الذكرى حين يفاجأ بان العمة مريضة وحزينة لان ولدها رفض زواجه ممن يحب لأنه لا يحمل شهادة تماثل شهادتها.
ويهز رأسه وهو يستند إلى الجدار رامياً بصره إلى الأفق {تلك الأيام نداولها بين الناس} ^
أحلام الخريف
في ذات المساء ربما رحلت الشمس قبل موعدها بسبب الغيوم التي بدأت في سماء المدينة الناهضة مؤذنة بليل مطير فيم كانت طيور النورس تشكل قوساً ميممة شطر المجهول وكانت تلك أيضا علامة أكيدة على حلول الماء والمطر معاً.
لم يكن الجو بارداً بل كان مغرياً إلى حد كبر بالتنزه على الشاطئ حيث البساط الأخضر الممتد بطول الكورنيش الموشي بأشجار النخيل ونباتات الزينة المزهرة في توازٍ رائع مع الخليج مما يشكل عقداً ماسيا أو قوساً لؤلؤياً يزين جيد المدينة بأضوائه المنسكبة والتي تعكسها المياه في لوحة بللورية أخاذة.
توقف الفتى بسيارته على جانب الطريق وترجل منها ثم اتجه بجسده المتين صوب السياج الحاجز للماء وهو ينظر صوب الأفق المترامي الذي يكتسحه الظلام مقبلاً غي مدبر في تحد واضح بعد أن فقد النهار سطوته وأوت الشمس إلى خدرها ومستقرها في الجانب الآخر من العالم عبر درة أزلية لا تختل وحسب المنظومة الإلهية العظيمة.
كان الفتي ومشاعره يعزفان على وتيرة الإحساس الطاغي بجمال الطبيعة والطقس لحناً حالماً عذباً وكانت مشاعر الفتى وأحاسيسه في تلك اللحظة تشكلان إشعاعاً عظيماً يخترق موجات الظلام التي تلف الأفق وتستشرفان الغد القريب وملامح المستقبل. ورغم الأحلام العذبة في المستقبل إلا أن شيئاً من الضباب الكثيف كان يلف بعض ملامحه.
لم تكن القضية ولم تبدأ إلا حين رآها ذات يوم بل ذات مساء حيث كان الغسق آخذاً بحافات الضوء الأخير للنهار حين كانت تسير برفقة سيدة تبدو أمها على قدميها قرب المنزل ربما لقتل الملل الذي يولده التواجد المستمر بين جدرانه وداخل أسواره أو ربما لسبب آخر في طيات الغيب المقدور ورغم أن ذلك لم يكن يتكرر كثيراً إلا انه حدث في الوقت الذي يقود سيارته باتجاه المنطقة في تجوال عبثي الجهة والمكان.
ومن العجيب في الأمر انه حتى الآن لا يذكر انه كان متوجها إلى مكان بعينه حين رآها وحين ارتسمت صورتها في قلبه وحين سرى حبها في شراييه لما ابتسمت في براءة طفوليه تنبئ عن جمال صابحتها. ساورته الدهشة في بادئ الأمر لأنه رأى نصف جمال الدنيا في هذه الفتاة الذي يبدو أنها لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها.
دار بسيارته بسرعة إلى حيث رآها مرة أخرى وتلك المرة كانت الصاعقة التي مس شررها قلبه وعواطفه وأحس بدوار في رأسه وبرودة في أطرافه ولم يغادر المكان حتى غابت داخل المنزل ولم تنس أن تلتفت لتلقي نظرة أخيرة فيما كانت قدمها تجتاز أعتاب المدخل.
آفاق الشاب بعد برهة من الوقت وهو يحس بخدر واضطراب قبل ان يتوجه نحو شاطئ الكورنش.
بدأ الفتي يدرك ويحس أن هناك في داخله تكمن قيم جمالية هائلة وبدأ أيضا يحس أن مرحلة جديدة في الحياة قد بدأت. جديدة في طعمها وجديدة في أحاسيسها. وبدأت كل خصائص المرحلة الجديدة لتسيطر على قلبه وعقله ومشاعره. لكن كانت الأفكار تتصارع داخل نفسه صراعاً نفسياً مرهقاً كان هناك حداً لا يجوز أن يتخطاه.
الإنسان هو الإنسان في كل أرجاء المعمورة يحمل خصائصه الإنسانية وطباعه البشرية ويعيش بفكر يحمل في أبعاده فلسفة الصراع الإنساني في السباق المحموم نحو القيم المادية والروحية والجمالية ولم تعد الحياة البشرية طعاما وكساءً ملذات فقط. بمعنى آخر لم تعد الحياة تمضي في إطارها الكلاسيكي الذي لا يتعدى إشباع الحاجات وتأمينها. بل تتجاوز تلك المرحلة إلى مجالات الإشباع الفطري والروحي ومن ثم الإبداع ولم يعد الصراع أيضا صراعاً من اجل الحاجات البشرية العادية ومقوماتها بل أصبح صراع الفكر المتوهج من اجل معرفة الحقيقة وتطويع تلك المعارف لمستقبل الإنسان وإشباع روحه وقيمه.
كل ذلك يحدث. نعم يحدث لكن ليس بمنأى عن طبيعة الإنسان البشرية التي يحملها بين جوانحه من عاطفة جياشة وأحاسيس إنسانية مرهفة تؤثر فيه ويتأثر بها. لكن لنا هنا وقفة وتعليق. فالإنسان ابن لبيئته ومجتمعه ولو تجاوز حدود تلك البيئة وذلك المجتمع سيحدث الخلل ويصبح

الإنسان خارج دائرة المجتمع وبالتالي خارجاً على قومه .. كان الشاب يدرك ذلك تماما فقد كان ذو فكر ثاقب وذو عقلية مدركة. لكن كل ذلك لا ينفي انه تعرض لهزة خطيرة وجارحة في صميم عواطفه ومشاعره وأحاسيسه في لحظة واحدة وبنظرة واحدة أيضاً.
شيء رائع أن نحب بكل جوارحنا لكن ما هو أروع من ذلك أن نفوز بمن نحب وان ترتوي العاطفة من ينبوعه الرقراق وتسبح في مياهه المعطرة والمفعمة بأريج الحياة.
ويتواصل الحوار الصاخب داخل العقل ويدور صراع عنيف بين العقل والقلب. فالعقل يحاور بالمنطق والممكن والظروف والمجتمع. والقلب والعاطفة ترفض المنطق ولا تعترف بالممكن ولا بالظروف أو المجتمع.
واخذ العقل يسترجع الماضي في صورة أحداث متلاحقة وغاص الشاب بوعيه الباطن في سراديب الطفولة وبدأ يسترجع أحداثها في محاولة لاستكشاف أسرار النفس وتقييم الذات.
طفولة جيدة لكنها ليست سعيدة لان السعادة أن تعيش المرحلة بكل عناصرها وعناصر السعادة في الطفولة لا تكمن فقط في أن تحصل على ما تريد. لا بل هناك أشياء أخرى وتفاصيل صغيرة وربما تافهة إذا قيست بعقلية الكبار لكنها تعد صلب السعادة في حياة الأطفال وهي أن تعيش عالم الطفولة كاملاً وسط باقي الأطفال تلعب مثلهم وتسقط على الأرض وتارة. تخرج راكضاً عاري القدمين تضحك وتصيح ثم تعود إلى المنزل ممزق الثياب. ومغبر الجسد بفعل اللعب. وهكذا حياة الطفولة أو بعضا منها لكنه يتذكر فقط كيف كان ينال ما يريد من اللعب فقط لكنه لا يجد من يشاركه اللعب بها.
فقد كان ممنوعا من الخروج إلا بصحبة خادمة مرتدياً ملابسه النظيفة ويتذكر أيضا كيف كان ينظر إلى الأطفال من الذين يلعبون ويتشاجرون من خلف النافذة وهو يتمنى أن يشاركهم ألعابهم وبالطبع لم يكن ذلك مسموحاً. فقط داخل البيت منفرداً وله ما يشاء. كل ذلك يتذكره الفتى والطفولة حافلة بالذكريات لكن الحب الحقيقي الذي يشبع الروح ويروي ظمأها لم يكن له وجود وتنساب أسرار الذاكرة ليصل عبر أحداثها إلى محطة المراهقة والدراسة وكيف تحول مسار الحياة رغم الذكاء الحاد ورغم النبل وكرم النفس إلى وجهة أخرى لم يكن له يد في صنعها وإنما انشغال الوالد في أعماله الكثيرة وعدم متابعته للصغير من جهة أما السبب الثاني ويعتقد انه السبب الرئيسي وهو أن نفسية ذلك الشاب تتميز بذكاء فطري غريب مصحوباً بقلق وتوتر وعقلية متمردة وطموحة تعرف كيف تصل إلى مبتغاها بل وتصر على الوصول إليه وتلك نقطة سنستعيد تفاصيلها في سياق الأحداث.
ظلت أحداث الذاكرة تتوالى حتى وصلت إلى مرحلة في الحياة كان لابد من التوقف عند مفارقها لاختيار الطريق وتحديد الملامح للمستقبل القادم الذي يرتكز على الثروة وبالتالي ضياع العمر في جمعها حيث هبة ريح واحدة تستطيع أن تعصف بالثروة أو بصاحبها أو بالاثنين معاً إلى حائط النهاية المؤلم (الموت أو المرض) كان يؤمن إيماناً جازماً ويعتقد اعتقادا راسخا بان للحياة وجهاً آخر وبالتالي يصبح للإنسان وظيفة أخرى في الحياة ومجالات تتسع ليصب فيها الإنسان نتاج فكره وإبداعاته.
انتزع الشاب وعيه من سراديب الأفكار والتحليلات التي تشابكت داخل عقله. وبدت عقيمة الجدوى مما أضفى ضبابية على رؤيته للمستقبل الذي ارتسم في صورة رائعة وساحرة حين رآها وحين قرأ في نظرها إجابة شافية من خلال الابتسامة التي جعلته يهتز من داخله بعنف وكأن زلزالاً حرك ما بين ضلوعه لينفض من داخله آثار الحزن وليطهر قلبه من بقايا نزعات شريرة ورواسب نفسية مؤلمة وقاسية تنبت داخل نفوس البشر بفعل الحرمان من نسمات الحب الرقيقة وبفضل أعراف المجتمع تشكل قيوداً حريرية على نظرة الإنسان السليمة لتثمر فيما بعد ثماراً مشوهة أو معطوبة بفعل تقاليد قديمة وبالية يجب تطويعها بمرونة وسلاسة وتوظيفها في خدمة التطور التاريخي والحضاري للمجتمع.
وكان السؤال الذي يراوده ويلح على نفسه دائماً هل تنطق أحاسيسه بالرغبة ام الحب الحقيقي الذي اجتاح كيانه ومشاعره. كان يحاول ان يبرر ويبرهن مع نفسه في حوار صامت ومكتوم إنما يريده ويحسه أمر مشروع لا يتعارض مع خطوط العقيدة بل تعترض عليه وترفضه عقول يابسة حكرت نفسها في أطُر فكرية ضيقة وأعراف اجتماعية بائسة ما انزل الله بها من سلطان ورغم اليقين بخطأ تلك الأفكار وسوء نتائجها إلا أن الجميع يهمهم بالدرجة الأولى الشكل العام والصورة المفرغة من المضمون.
وكان طوفان العشق أقوى من كل عواصف الأفكار فجرف أمامه كل شوائبها وانطلق الشاب بسيارته يسابق الريح وقلبه يتراقص بين ضلوعه مضطرباً وبرودة تسري في أطرافه وتمتم بينه وبين نفسه (لتذهب كل الظروف إلى الجحيم) لكن في الواقع كان هناك ما هو أقوى من الطوفان!!! أبطأ من سرعة سيارته حين أصبح على مشارف المنزل وفكره يدور حول المنزل وفي المرة الثالثة لمح شخصاً يخرج من الباب ولما اقترب منه تبين انه احد الخدم وأسعفته فكرة هائلة لمحادثته وحين أصبح بموازاته تماماً أشار له في تودد وبحيلة بارعة حصل على رقم التليفون وأسماء الشباب الذين يقطنون المنزل ثم انطلق يسابق الريح بعد أن ساعدته الظروف بصورة مدهشة كأن القدر يمهد الطريق لبداية مؤكدة ونهاية مجهولة يحملها الغيب في طياته ليكشف عنها بعد ذلك في صورة أحداث متلاحقة تحمل في حقائقها جوهر الحزن والفرح وجوانب السعادة والتعاسة إلى أن تنتهي لمصيرها المحتوم كحقيقة نعيشها أو ذكرى نحملها في مخازن ذاكرتنا نعود إليها أحيانا فنسترجعها لنستمتع بدفئها.
وبدأ المطر يرسل قطراته الأولى منذراً بالهطول ليلامس الأرض في عناق رائع بين الطبيعة التي رسمها الخالق سبحانه وتعالى في أعظم صورة وحكمة وبدت الأرض كأنها أنثى تنتظر ذلك العاشق الذي يروي ظمأها ليعقب ذلك العناق اخضرارها وتزينها بالرياض المزهرة والرياحين العبقة.
استدار الفتى متوجهاً إلى سيارته وغادر المكان بعد أن قر قراره على الاتصال بها وليكن ما يكون.

كانت مساحات الزجاج تعمل على واجهة السيارة وكان عقله منتشياً وهو يفكر ويبني ويحاور ويستنتج مع نفسه.
ادخل سيارته إلى المرآب وأوقف محركها ولم يغادرها بل ظل جالساً وهو متكئ برأسه على عجلة القيادة مستغرق في تفكير عميق على الرغم من ان القضية قد حسمت داخله تماماً ربما للشعور الجارف الذي انتابه والرغبة العارمة التي اجتاحته حين راها وحين احتوت عيناه جمالها وحسنها وابتسامتها الفاتنة. وظل الحوار متصلاً داخل نفسه لان معطيات الواقع وحقائقه الثابتة تشكل ظلاً قائماً وغلالاة سميكة تحول بينه وبين الاندفاع في احلامه وخياله فهناك دائماً حواجز قوية تحول بفاعلية بين الحالمين وآمالهم وبين الطموحين واهدافهم بعض هذه الحواجز يجب التوقف عندها لانها تعتبر صماماً للامان في المجتمع وبعضها الاخر يشكل الوهم جوهره وحقيقته. تحرك بجسده الممتلئ وغادر السيارة واحتواه المنزل كل شيء بالمنزل كما هو منذ سنين لم يتغير منذ ان اجتمعت الاسرة لتقرر الزوجة ورشحت الام ثلاث فتيات من الاقارب واستقر القرار على واحدة منهم ليراها حسب العرف والشرع في بيت احدى القريبات كبيرات السن والمقام.
كان الامر حينذاك غريبا عليه وكان يسائل نفسه هل يا ترى تتمتع بالجمال الذي يحلم به والاخلاق والثقافة التي يتمناها وكان يستند على راي الام والاهل في جمالها وهم بالطبع لا ينظرون الى مثل هذه الاشياء باهتمام.
هناك أشياء أخرى اهم من ذلك. الحسب والنسب والمال تلك أمور تشكل القدر الأكبر من تفكيرهم. والأمر الآخر النظرة الخاصة الى الشاب فهو الصغير بين الأولاد وكما حدث لأخويه يجب ان ينطبق عليه وحيث مساحة الحرية الممنوحة له للاختيار لا تتعدى مسالة رؤيته لمن يرشحونها ثم عليه هو ان يرفض وعليه ان يحاول فان ذهبت جهودهم في إقناعه سدى فليرشحوا هم أخرى وعليه ان يرى ثم يقرر قبولاً او رفضاً.
أما ان يختار هو ويحدد ثم يقبلوا بعد ذلك فتلك أمور غالبا ما تأتي بأسوأ العواقب خاصة اذا كان الوالد عادة او دائما يفرض ما يراه هو يقتنع به مهما كان الأمر وإلا فلن يكون هناك زواج نهائياً.
ذهب إلى منزل الأقارب الذي تقرر ان يتم فيه اللقاء لرؤيتها ورآها. لم تكن هي ما يريده أو المرسومة في خياله لكن كرم معدنه ونبله منعاه ان يرفض حفاظاً على مشاعرها. أحس انه لو رفضها ستكون طعنة نافذة في أحاسيسها وستحدث شرخاً عميقا في نفسيتها لان الرفض منه معناه انها لا تصلح وذلك أمر في غاية القسوة على نفس فتاة تحلم برجل يحتويها ويظلل عليها لتحس بأنها أنثى وإنسانة صالحة يتمناها رجل ما في لحظة لتكون رفيقة عبر دروب الحياة.
اقبل الشاب وتم الزواج وانقضت ليلته وبدأت الحياة تكشف المستور والمجهول وبأ الصدام والتنافر بين طبيعيتين مختلفتين لا اتفاق بينهما على مستوى العاطفة او الأفكار .
لكن كان الأمل هو القوة التي تدفع بالحياة إلى الأمام وكان الأمل معرضا للضياع وكانت طريقة الحياة الزوجية وتفاصيلها تدعوا إلى اليأس إلى ان ابتسم الأمل من جديد بطفل جميل رائع أعاد للحياة بسمتها والليل الطويل فجره إلى حين .
بدت الحياة أنها استقرت على هذا الرتم والإيقاع الرتيب من إهمال الزوجة وعدم اهتمامها بزوجها إلى الضغط الرهيب من الأهل ثم هناك دائما الأمل تلك الطاقة التي ترى من خلالها شعاع الفجر يتسرب ليبدد ظلام اليأس وعتمة الحياة .
عواطف الإنسان ورغباته في الحياة ونظرته إليها تحدد وترسم اتجاهاته في المستقبل والمرأة تشكل عنصرا رئيسيا في حياة أي رجل وعامل استقرار مهم ينطلق من خلاله إلى الحياة ليبنيها وإلى باقي آماله وتطلعاته ليحققها .
فالمرأة دائما هي الميناء الذي ينطلق الرجل منه ليصارع أمواج الحياة صانعا مستقبله ومحققا لآماله وطموحاته فإن لم تتحقق المرأة في حياة الرجل تظل في خياله مساحة كبيرة لها وتبدو كل الآمال والأحلام من اجل امرأة .
أجل من أجل امرأة وكانت تلك النظرة التي باتت تتشكل بها من جديد ، كانت روح جديدة ومشاعر جديدة وقوية قد تكونت وقاعات أخرى قد استقرت بالفعل في داخله واستقرت في نفسه قليلا لكن اجتاحته عاصفة من القلق حول كيفية الاتصال ومن الذي سيرد على الهاتف ، أمور صغيرة لكنها مقلقة وتلك دائما تكون البداية بداية الحديث بين عاشقين .
لم تلاحظ الزوجة انه لم يطلب طعام العشاء كالمعتاد فهو دائما يطلب الطعام وإذا لم يطلبه فلا احد يأتي له به وعادة تكون الخادمة هي الضحية للانفعال والغضب الناتجين عن إهمال الزوجة وانصرافها لأمور تافهة او لصمتها او عدم الاهتمام بزينتها وطلبات زوجها .
بدل ملابسه وأخذ بعض أغراضه وذهب إلى غرفته الخاصة بالقراءة ومشاهدة التليفزيون أو سماع الموسيقى كان شغوفا بالموسيقي إلى حد كبير وبخاصة تلك المقطوعات الهادئة والرومانسية التي كانت تشكل المتنفس الوحيد للضغوط النفسية والحياة الزوجية الباردة التي كان يعيشها وكانت مكتبته خليط من الكتب المتنوعة واحدث أجهزة الاستيريو واسطوانات الموسيقي ، كان باختصار فنانا في تفكيره قلقا في نفسه ، وسواسا في كافة التفاصيل الصغيرة وحتى التافهة التي تمر على حياته عجولا في الحصول على ما يريد وفي تصميم وإصرار غريبين ، كان لابد ان يحصل على ما يريده أو ما يقتنع به مهما كلف من مال أو جهد ، وكان أيضا سريع الملل كان باختصار يملك قلب طفل ونفسية شاب وعقل رجل ، لا يطيق الظلم على غيره ويبادر في كرم عفوي إلى المساعدة وحين يقدم يد المساعدة فإنه كان يحس براحة غريبة وهدوء كبير .
الحادية عشرة والنصف ليلا وقت متأخر لكنه بالنسبة للعاشقين أمر آخر ووقت آخر . امتدت يده المرتعشة إلى جهاز الهاتف وتعاملت أصابعه مع الأرقام في بطء ينم عن القلق وقرع جرس الهاتف على الجانب الآخر في حين كان قلبه كأنه بين كفين تعتصرانه وكل ذرة في جسده في حالة قلق وترقب . ورفعت السماعة على الجانب الآخر وبعد ثوان قليلة مرت كأنها دهر انساب عبر أسلاك الهاتف صوت أنثوي ساحر زاد من سحره ان صاحبته بدت أنها كانت على وشك الاستسلام للنوم . وبدا هو كمن يغرق في لجة عطرية رائعة من الانفعال اللذيذ .

واندفع الطوفان هائلا ليجتاح أمامه كل المحاذير ولتبدأ فعليا حالة حب دافقة وإعصار عشق رهيب صنعته التقاليد العقيمة وتسبب به الحرمان والإهمال.
كانت الساعة السابعة صباحا حين ودعها على أمل جديد باللقاء على الهاتف وحين نظر في ساعته أصابه الذعر وأسرع ليرتدي ملابسه على عجل ليلحق بعمله .
لاحظ زملاؤه إشراقه وجهه كما لاحظوا أيضا انه بادر بمصافحة احد الزملاء كان قد أساء له من قبل وكأن شيئا لم يكن ثم نادي على احد السعاة وأمر بالذهاب لشراء الفطور له وللزملاء لم يبدوا دهشتهم لذلك فهو يفعلها بين الحين والآخر . لكن بعضهم ساوره الاستغراب للمنظر العام ككل . إذن هناك جديد هكذا قال احدهم .
الحب والعشق كأي شيء آخر في الحياة يبدأ كالطوفان قلقا وعاصفا وينتهي في هدوء إما بشرخ عميق في القلب والمشاعر أو ينهيه حب جديد لكنه يترك الأثر باقيا وخالدا ما طالت الحياة ويظل المحبوب عزيزا وغاليا وتظل مكانته في النفس وهجا يضيء ظلال الجانب الآخر منها وذكرى عطرة تمنح الإنسان الدفء والسلام .
كان كل ما يحدث يظهر له بالدليل الدامغ كيف كانت الحياة قبلها سجنا كئيبا وحياة عصبية وفترة زمنية ساقطة من حساب الزمن لا يجوز احتسابها بل يجوز تماما التعويض عنها ، وهل يجوز لعاقل أو إنسان سوى ان يحرم الآخرين من الحياة .
إسلامنا وشريعته السمحة أبدا لم تمنع الإنسان من ان يستمتع بحياته كيف يشاء ومتى يشاء وحرمت فقط ان يؤذي الإنسان نفسه او غيره بل كان رداؤها واسعا وفضفاضا في منح الحرية للإنسان في سلاسة ويسر تختلف في ذلك عن باقي العقائد والتشريعات التي سبقت ، فقط المجتمع هو الذي يعطل ويمنع ويقسو بلا سبب مقبول باسم أعراف وتقاليد يقتنع المنادون او المتمسكون بها قبل غيرهم أنها خاطئة لكنهم لأوهام في عقولهم لا سند لها من العقل أو المنطق أو الدين يتصدون بشدة للتمسك بها ولا يعلمون أنها قد تكون سبيلا إلى العار والندم ، كانت الفتاة رغم صغر سنها الذي تبين فيما بعد انه السادسة عشرة قد خاضت تجربة من قبل مع احد الشباب وكان ذلك الارتباط الأول في عمرها لكنه كان ارتباطا من نوع صداقة التليفون ، ولم يكن ارتباطا عاطفيا صادقا بمعنى الحب ذلك لان الفتاة رغم وجود إخوة لها وأسرة إلا ان الخلافات بين الأب المولع بالسهر والشراب واللهو وبين الأم التي كانت تريد حماية وتربية أطفالها وصلت إلى درجة خطيرة مما جعل الوالد يعيش منعزلا لان الأولاد - وبالطبع - كانوا منحازين إل جانب الأم التي كانت هي الأخرى شديدة العناد والتصلب ولم تتعامل بحكمة في مشاكلها مع زوجها رغم ان الأولاد وخاصة الذكور كانوا شبابا يانعين بعضهم أنهى دراسته ويمارس العمل إلا انه رغم وجودة إخوة لها فإنهم لم يتميزوا بطابع الصداقة مع أخواتهم من الفتيات حال الغالبية في مجتمعنا حيث تعامل الفتاة بقسوة وشدة واتهام لمجرد همسة بسيطة أو حركة عابرة أو لمجرد ان احد الإخوة من الشباب خيل له الوهم شيئا من ذلك وتعدى ذلك الخلاف الأسري بين أب يعيش على هواه دون ادني مسؤولية وأم تحاول بناء الحياة لأولادها إلى الطلاق واهانة الوالد وتركه وعدم العطف عليه بل والتحريض على بغضه وكراهيته .
ولم تدر الأم أنها وهي تحمل أبناءها على كراهية والدهم والاعتداء عليه أنها تنتزع من نفوسهم أجمل وأرقى القيم والكنوز الإنسانية الرفيعة التي تتمثل في علاقة من أسمى العلاقات الإنسانية وهي أرقى أنواع الحب الفطري بين الأولاد ووالدهم .
ولم تدر أو تشعر أو تعلم ان انهيار تلك العلاقة يشوه نفسية الأبناء تماما ويشعرهم بجرح دامي لا يلتئم مدى الحياة ومهما كان العلاج فالأب لأولاده ليس كأي إنسان آخر ومهما بدت العبارات قوية ومثيرة فإنها لا ترقى أبدا إلى مستوى التعبير الصادق عن تلك العلاقة الإنسانية الرفيعة والنبيلة فالوالد ماضي الأبناء القريب فإن ضاع ذلك الماضي وتلوث تصبح الحياة في مستقبل الأبناء معزوفة حزن دائم حتى يصل الأمر بهم إلى الخوف من النظر إلى المرآة حتى لا يشاهدوا مدى التشويه الذي أصاب نفسيتهم ويكاد ينطبع على قسمات وجوههم .
ولم يكن الشاب يعرف تلك التفاصيل وبالأحرى لم تكن ذات أهمية بالنسبة له فتيار الحب الجارف والعاطفة المتأججة ملأت كل الفراغات والمساحات المظللة داخل عقله الذي توقف تماما ليرتوي القلب والعقل معا برحيق العاطفة الفياضة والمشاعر الدافئة اللذيذة التي سحقت كل أسباب المقاومة وعطلت تماما عقلانية الحوار داخل نفسه .
وكان اليوم الحقيقي له يبدأ عادة ليلا وبالتحديد منتصف الليل حين تكون الزوجة كعادتها غارقة في سباتها لا يشغل عقلها شيء مما يهم زوجها او ما يرغبه وكان حين يراها هكذا يغمض عينيه في أسى واضح وتعاسة ظاهرة فلا شكوى تنفع ولا محاولات تجدي نفعا وكان عزاؤه الوحيد ان يرى ولده الوحيد ضاحكا وسعيدا في أحضان خادمته .
حاول مرات ان يشكو إلى والدته ووالده لكن كان الرد دائما هكذا الحياة ولا بد ان ترضى وكان يضحك في مرارة وهو يقول مازلت طفلا في عقليتهم ورؤيتهم .
الساعة الثانية عشرة ليلا تبدأ مع دقاتها أروع لحظات الحياة دفء المشاعر بطعمها الذي يجربه .
قوة جديدة وعافية جديدة وحياة جديدة حلوة ممتعة وينساب صوت الموسيقى العذب الآتي مع نبرات صوتها المتدفق بالأنوثة وكلماتها التي تدفع بالحياة إلى عروقه ولم يكن هناك أي مجال للمقارنة بينها وبين زوجته إلا بين الجحيم والفردوس .
تفتحت الحياة كزهرة أقحوان برية وفعل الهمس عبر أسلاك الهاتف فعله وتطور الهمس في خضم الرغبة وعواصف الحرمان إلى ما هو أقوى وأمتع ولم يعد الشاب يشكو ولم يعد للحزن اثر على وجهه وظلت بلادة الزوجة على حالها لم تتغير ولم تكلف نفسها حتى عناء التفكير في أسباب تغير زوجها أو سهره المتواصل لأنه يبدوا أنها لا تشعر أو تحس إثناء نومها ان كان قد نام في فراشه أم لا لكنها لاحظت نومه العميق بعد عودته من العمل وحتى السابعة أو الثامنة مساء إلى أن تغيرت المواعيد بعد ذلك حيث كان لابد من تغييرها بعد انتهاء العطلة الربيعية للمدارس .

كان الهاتف باختصار حياة أخرى لها كل مقومات الحياة الروحية والنفسية ما عدا الجانب المادي منها مما كان يزيد اللوعة والاحتراق والتلظي بنار الحرمان وقسوتها .
كان يصبح من نومه على صوتها يحتويه وغرقه في لجة معطرة وكانت تضع خدها على خده وتلف يديها الصغيرتين حول عنقه ليغيب عن وعيه مستغرقا فيه أجمل لحظات يعيشها لحظات مسروقة من خزائن الحياة المغلقة والمحرمة عليه بفعل أعراف مريضة لا تمت للعقدية أو الصالح العام بصلة بل هي أوهام في عقول عفا عليها غبار الزمن وظلام الجهل .
في خضم تلك اللحظات الرائعة الساحرة كان يخشى ان يفتح عينيه حتى تطول تلك اللحظات الحالمة ، كان باختصار كالأرض العطشى التي طال عليها الهجير فلما غشاها المطر مدها بأسباب الحياة فأنبتت وربت واخضرت رياضها .
كان يضع الطعام أمامه لكنها هي التي كانت تحضره وهي التي كانت تطعمه ثم تسقيه ماء الحياة من بين شفتيها عذبا رقراقا ممزوجا بماء الورد ، وحين كان البرد يهاجمه في وحدته ليلا كانت ضفائرها كفيلة بأن تمنحه الدفء وتحميه من لسعات البرد وكان صدرها هو الفراش الذي يتمدد عليه ليغيب بعد ذلك عن وعيه ، كانت حلما رائعا وخيالا لا يصدق وسحرا لا يقاوم لكن عادة ما تأخذ الأحداث مسارا آخر غير ما هو مرسوم حين يبدأ العقل عمله عبر شخص آخر يبعث به القدر ليعيد للأمور بعض توازنها الذي فقدته بفعل طوفان العاطفة وعواطف الرغبة المتأججة التي اجتاحت كل ثوابت العقل والمعقول .
هلت تباشير الصيف وبدأت شمس يونيو القوية تلهب الأرض بحرارتها ليستعد الناس للسفر إلى بلاد أخرى طلبا للراحة والمتعة في إجازات طويلة يهربون خلالها من مشاكل العمل طوال العام وحرارة الجو ورطوبته القاسية التي تجبر الجميع على التزام المنازل المكيفة مما يفرض نمطا حياتيا واجتماعيا خاصا على طريقة المجتمع في الحياة ورحم الله أهلنا الذين قضوا وبارك في الأحياء منهم الذين كدوا وعاشوا شظف العيش وصارعوا قسوة الظروف والحياة مسلحين بالإيمان العميق والتراحم والود والقلوب النقية الصافية حتى أراد الله ان يعوض الصابرين خيرا فكانت الثروة التي تدفقت سخاء رخاء من باطن الأرض لتبدل وجه الحياة على أرضنا ولتأخذ أيضا منا أشياء عظيمة وقيما اجتماعية رفيعة مقابل ما أعطت من ذهب ومال .
والهروب إلى البلاد الأخرى يحتمل في معناه أيضا الهروب من القيود الاجتماعية والنفسية التي تشكل التقاليد عصبها مما لا يمكن . فما لا يمكن هنا يمكن هناك ، وما لا يحدث هنا يحدث هناك ، ولكل هدفه ومطلبه والأدهى من ذلك ان السفر إلى الخارج لتمضية فترة الصيف أصبح إحدى العادات الاجتماعية التي تحمل إبعادا سيئة في معناها بعد ان أصبحت حالة مرضية فعلية في مضمونها فرغم الفوائد العظيمة للسفر إلا أننا لا نفكر في استثماره بطريقة صحيحة لكن الغالبية منا تبدأ يومها في البلاد الأخرى عادة بعد الغروب حيث السهرات التي لا تنتهي بين الصالات الخضراء والملاهي الليلية التي تخصصت في كيفية ابتزازنا و إثارة الجوانب المظلمة في عقلية شبابنا دافعين بهم إلى دروب السوء ومسالك التهلكة .
أما البعض فلا يعرفون في السفر إلا التجول في الأسواق وابتياع ما يحتاجون إليه وما لا يحتاجون ، رغم ان أسواق بلادنا تضج من الركود رغم ما بها من بضائع جيدة ، أما المتاحف والمسارح والمكتبات العامة والخاصة والمعالم السياحية والتاريخية فتلك أماكن تكاد لا تعرف وجوهنا إليها سبيلا .
كان وقت السفر يقترب والأسرة تعد حقائبها استعدادا للرحيل في سعادة وسرور إلا انه كان يغالب غصته في قلبه وارتباكا في نفسه حيث ان السفر يعني الابتعاد عنها وحرمانه من سماع صوتها الأنثوي العذب الذي يفيض سحرا ويلامس نبراته الرقيقة شغاف قلبه فيشبع أحاسيسه بحالة حب راقية ورائعة ونقية .
يختلي بنفسه في دوامات التفكير العميق متسائلا في أعماقه عن الفرق بين حبيبته وزوجته ليفاجأ بمساحات إنسانية شاسعة تفرق بين كلتيهما بالنسبة إليه ، كما يكون الفرق بين النعيم والجحيم ، بين الحياة والموت ، بين السعادة والبؤس ، كل ذلك يُرى بالأحاسيس والمشاعر إلا شيئا واحدا كان يدفع عجله الحياة الرتيبة إلى الأمام وكان هو الشمعة المتوهجة بالنور التي تضيء حلكتها وتزين دمامتها انه ذلك الطفل الجميل الذي يختطف بجماله وحركاته كل السيئات المتناثرة داخل المنزل ويلقي بها من النافذة حين تقع عليه عينا أبيه حينذاك يكون الصفح والغفران اقرب ما يكونان إلى النفس لكن يظل للعشق والحياة طعم آخر .
لا لن يسافرون فالأحوال لا تسمح ومشاكل الأسرة لم تنته بعد ، إذن هو الفراق ، وأحس بأن السفر بالنسبة إليه وحرمانه من صوتها أصبح كفا غليظة وتعتصر قلبه فلا عذر له كي يمتنع عن السفر الذي اقترب موعده وقر قراره على السفر مع الأسرة ثم ليختلق حجة ليعود وهكذا كان .
اشتعلت أسلاك الهاتف مشاركة إياها الحزن وبللت دموعها الندية الرقراقة سماعة الهاتف وهي تنشج باكية فتاها ترجوه البقاء بجانبها وهو على الجانب الآخر في حالة صمت حزين يستمع إلى نبراتها الطفوليه الباكية الصادقة قطعها بآه ابلغ من كل حديث ، وطلبت إليه للمرة الأخيرة ان تكحل عينيها برؤيته في نظره عابرة أمام باب المنزل وفي لحظات كان ينطلق بسيارته يسابق الريح ليخطف نظره لم ترو ظمأه بل اشعلت كيانه عطشا وألهبت مشاعره هياما وحبا .
الطائرة تخترق السحب متوجهة إلى أوروبا . زوجته إلى جواره وتحادثه وتسأله وهو يجيب بإيماءة من رأسه أو يتجاهل الحوار بمداعبه ولده إلى ان يغالبه النوم ثم يتناول جهاز الاستماع من المضيفة ليلصقه بإذنيه ويتمدد في مقعده ليستمتع بإحدى المقطوعات الموسيقية الحالمة ليغيب بعدها في إغفاءة لذيذة لا يوقظه إلا صوت المضيفة ليتناول طعامه .

سبع ساعات قضاها ذلك الشاب في الطائرة إلى ان هبطت في هيثرو ومنها إلى منزله في احد أحياء لندن برفقة أسرته ، أحس بعدها انه ابتعد كثيرا . نظر في ساعته ثم بدل ملابسه وتمدد على فراشه بجسده الضخم واستسلم لإغفاءة قصيرة .
أوروبا ممتعة بجوها البارد وطبيعتها الخلابة . بشوارعها ومعارضها وبضائعها . بأسلوب حياتها حين تطالعها بعين تريد ان تعرف وان تتعلم تستطيع ان تتنفس فيها بحرية بطريقتك أنت لا بطريقة الآخرين لا احد ينظر إليك أو ينتقدك ولا يريد ان ينظر إليك أصلا حتى لو سقطت تحت عجلات المترو ، رتم متسارع من الحياة يبهرنا ربما لأننا نفتقده ولكن لا يصل الانبهار أبدا إلى رغبة في الحياة بهذه الطريقة .
هناك لا تستطيع ان تسير في كل الأوقات ولا تستطيع أن تتحمل منظرا يؤذيك وعائلتك . حتى رائحة الوطن تحس إنك تفتقدها . حرارته ورطوبته وطعامه وملامح الشوارع والناس . تحس في جو بلادك انك في المكان الصحيح الحقيقي والطبيعي تفتقد حتى التحية حين تلقيها وأنت تقود سيارتك لأصدقائك الذين تلتقيهم صدفة في إشارة أو منحنى أو زاوية أو على الكورنيش .
كل ذلك بالإضافة إلى حبيب تفتقده كان صوته يدفيء مساحات ضخمة من الصقيع داخلك ويدغدغ أحاسيسك بعنف تستطيع معه ان تصل الليل بالنهار دون ان تحس العطش . تحس ان هذا هو فردوس الحياة ونعيمها ولا شيء أكثر . تتضاءل قيمة الذهب والمال داخل نفسك إلى درجة انك قد تضحي بكل ما تمتلك راضيا وسعيدا في سبيل أن يستمر حبك وينمو ويزهو ويكبر كطفل جميل ملائكي .
ولم لا فقد تخلى الملوك عن عروشهم وسطوتهم وصولجانهم مقابل احتفاظهم بامرأة تدلّهوا في حبها وتولعوا في جمالها وكان سلطان الجمال والحب اقوي من سلطان المُلك والمال .
وكان طوفان العشق والحب أقوى من الزمان والمكان الذي يعيش فيه وبعد أيام كان يغادر بمفرده عائدا إلى وطنه ليرتوي بعذب حديثها وبقربها شهدا باردا يخفف من لظى الهجر الذي يولده البعد والحرمان .
هبطت طائرته وخلال دقائق بعد ان أنهى الإجراءات كان داخل منزله وأحس بالهدوء وبالحياة يتدفقان داخل شرايينه حين سماعة الهاتف لينساب صوتها داخل روحه كما ينساب الماء القراح إلى جوف يكاد يشتعل من الظمأ. ورغم إرهاق السفر في رحلة العودة إلا ان عدة ساعات من الحديث بالهاتف مرت قبل ان يودعها ليغيب في نوم عميق هانئ تخلله بالتأكيد أحلام سعيدة .
لكل شيء بداية مقدرة . ولكل شيء بداية نهاية محتومة مهما كانت النتيجة سعيدة أم بائسة ولا يستطيع أي فرد على وجه الأرض ان يتحكم في مصير حياته ومسارها إلا بالقدر الذي تتيحه القدرة البشرية المحدودة ولأنه بالضرورة أيضا مخلوق لم يتحكم في قضية وجوده .
ورغم طموح الإنسان وسعيه الدائم والفطري نحو القمة إلا أنه ينسى غمرة الإحساس الجارف بالنجاح ان القمم عادة ما تغطيها الثلوج وتعصف فوقها الرياح .
فبالرغم من كل العوائق التي تعترض طريقة وبالرغم استحالة تحقيق الأمل في الزواج منها ليس لمانع شرعي او قانوني بل لعادات وتقاليد اجتماعية ما انزل الله بها من سلطان لا تتفق مع الأعراف الإنسانية أو الدينية بل حفاظا على مصالح شخصية ونفسية ونفوس مغموسة بالاستبداد والإصرار على الخطأ والجهل دونما إحساس بما قد يولده ذلك من عواقب سيئة تنعكس بالضرورة على السياق الأخلاقي والقيمي للمجتمع وتؤثر تأثيرا سيئا على مستقبل الأجيال .
فحين خلق الله سبحانه وتعالى البشر خلقهم على فطرة سليمة وحين أبلغنا رسالته السمحاء وشريعته العظيمة وضع لنا أساسا ومنهاجا مُيسرا ورحيما يبتغي به إصلاحا وتقويما وعدلا لكننا نحن ومن منطلق خاطئ نفرض على نفوسنا قوانين نصنعها لنضيق على نفوسنا رحمة مهداة من الخالق سبحانه وتعالى زيّنّاها بأوهام لا يقبلها منطق قويم أو فطرة سليمة .
وهكذا بدأت العراقيل تظهر وتبرز إلى حيز الوجود كلما زاد الأمل في الفوز بمن أحب .
حين بدأ الفجر ينتزع خيوطه الأولى من بين دياجير الظلام كان الحوار قد بدأ يخفت وتبرد حرارته بين الفتاة وشقيقتها الكبرى التي كانت الإنسانة الوحيدة التي تفتح لها صدرها بلا خوف أو حذر والتي كانت بالنسبة لها صمام الأمان التي تلجأ لها حين يكون هناك ما يستدعي ذلك خاصة في أمور تعتبر من المسلمات في مجتمعنا لكنها محظورات عادة ما تكون نتائجها خطيرة.
وكانت شقيقتها بالنسبة لها بمثابة الأم الحنون خاصة ان الشقيقة الكبرى متزوجة ولها أبناء وهناك فارق سن كبير يسمح للكبرى ان تقوم بدور الأم بثقة وطمأنينة .
ورغم وجود الأم إلا أنها كانت ذات عقلية متشددة لا تسمح حتى بالكلام في هذه المواضيع إضافة على الأشقاء الذين يتمتعون بالعقلية نفسها رغم أنهم كالعادة يبيحون لأنفسهم ما يحرمون على الغير وبصفة عامة كما أسلفنا كانت الأسرة تعاني من انفصال الوالد ومشكلاته التي بدأت باستهتاره وتعاطيه الخمر ثم زواجه من أخرى وانتهت بيع أملاكه إلى ان شاء الله والهم الأم لتجمع أولادها حولها ليبنون حياة جديدة لكن بلا أب يرعى فعليا شؤونهم .
وكانت الشقيقة الكبرى ذات عقل راجح وتفهم موضوعي للأمر لكن ما أصباها في حياتها من مشاكل مع زوجها انعكست على نفسيتها مما جعلها تضع بخبرتها الشخصية مقياسا ونموذجا تقيس به القضايا العاطفية بين الآخرين ، مما جعلها تثير قضايا الخلافات قبل ان تتفاءل بعوامل السعادة.
كانت الفتاة متمددة على فراشها مرتدية ثوبا حريريا ينطق بأنوثتها وجمالها فيما يتناثر شعرها الأسود الفاحم والناعم على وجهها وظهرها وتمتد خصلاته حتى إلى أردافها - وكانت عيناها الساحرتين وبشريتها الخمرية الناعمة تشكل مع شفتيها الغضتين وخديها النضرين لوحة إلاهية مجسمة للجمال وسحر الأنوثة . كانت باختصار وبلا مبالغة مصدر خوف وقلق لأسرتها من هذا الجمال الطاغي وتلك الأنوثة التي

باتت وأصبحت كزهرة ندية أو ثمرة ناضجة تنتظر القطاف من فارس الأحلام القادم على صهوة الحب الجارف والرغبة الأكيدة في الفوز بها .
كانت تفكر في حوارها مع شقيقتها وهي تعبث بجديلة من شعرها منسدلة على صدرها بعمق وكانت تقاطيع وجهها اقرب على العبوس منه إلى الانفراج .
كانت تفكر في حبيبها بعنف وكانت تعشقه بجنون وهي تعلم علم اليقين ان حبه لها ورغبته فيها وعشقه لها يتجاوز كل حدود العاطفة الإنسانية وتعلم كذلك أنها بالنسبة إليه بلسم الحياة .
هكذا كانت تفكر وتسترجع شريط العلاقة معه ولحظاتها الرائعة حين كانت تثيره بشقاوتها وعنادها ثم تسترضيه بعد ذلك أيضا بشقاوتها ورغبتها وليس بعنادها.
كانت تتذكر كيف تصف نفسها له ثم كيف كانت تمنحه الحياة في حديقتها الوارفة وكيف كان يتجول بين زهورها مخمورا بعبيرها وطبيعتها .
كيف كان ينام في وداعة كطفل رضيع على صدرها المتمرد النافر وكيف كان يلتحف بجدائل شعرها الطويل الفاحم هربا من برودة ليلة شتوية وكيف كانت تضع شفتيها كرزتين بضتين في فمه ليرتوي الشهد منهما ويسكر برحيقهما .
انحدرت دمعتان حارتان رقيقان على خديها وهي تحاول الاستلام للنوم ، كان الأمر صعبا ومعقدا ويحتاج لتضحيات عظيمة لا تستطع هي ان تقدمها ولا هو أيضا.
وكان الأمر بالنسبة إليهما كحلم بدأ لينتهي فقد كانت هناك زوجته وأسرته وهما زوج من القيود الضخمة والثقيلة التي تقيد حركته - استبداد الأب والثروة التي يحتفظ بمفاتيح خزائنها - الزوجة المفروضة فرضا بعد موافقة نبيلة وخاطئة - الطفل الرائع الجميل الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى صورة مصغرة من أبيه ، وكانت المسألة تحتاج إلى الوقت والتضحية وكان الأمر صعبا بالغ الصعوبة ، تلك المقاييس دوامات من التفكير تتسع وتتسع كماء النهر حين تلقي فيها بحجر وتظل الدوائر تتسع حتى تلامس حوافها الشواطئ وشيئا فشيئا التقت رموش عينيها السوداوان الرائعتان والمتعبات وراحت في نوم عميق وقلق .
وتلوث الحليب وحين يتلوث الحليب يتغير طعمه ويصعب شربه وهكذا باتت الفتاة مشوشة الفكر متوترة الأعصاب .
استيقظت الطيور من نومها مرفرفة ومنطلقة باتجاه مصادر رزقها بعد ان اطمأنت على صغارها في الحديقة الوارفة المحيطة بمنزل الشاب وهو لا يزال غارقا في نومه .
بعد ان عصفت بأحاسيسه إشارات قوية فهم مغزاها من خلال الحديث السابق ليلة الأمس عبر الهاتف حين تطرقت في حديثها إلى ضرورة طلاق زوجته كشرط أساسي لاستمرار الحب وتأكيده ثم التصميم على الاستمرار في الدراسة حتى التخرج وهما ما أحس انه بمثابة كابوس ثقيل يجثم على روحه وتفكيره .
فقد كان من النبل بحيث لا يقبل ان يطلق زوجته أم ولده رغم عيوبها وتقصيرها ورغم الحياة التي تفتقد المعاني الحلوة للزواج . ولماذا يطلقها وهو يملك ما يمكنه من الإنفاق والقدرة وعلى العدل إلا فيما يهوى القلب ويميل ؟ ذلك هو الأمر الوحيد الذي سوف لن يتحرى العدل فيه ليس لقصور منه ولكن لتقصير وإهمال كاملين من الزوجة التي حاول معها بشتى السبل والوسائل لإصلاحها بلا نتيجة حتى كان الإهمال عمل تبتغيه هي بإرادتها .
لم تحاول يوما كطبيعة الزوجات ان تتزين له رغم الإمكانات الكبيرة المتوفرة من الملابس والعطور وأدوات الزينة وكان هو يطالع الآخرين ويتعجب من نفسه .
ورغم الحرمان الذي كان يعيش فيه إلا انه كان عفيف النفس كريم المنبت لم يحاول ان ينفث عن هذا الجانب من القصور في حياته بطرق غير شرعية أو باللهو مع أخريات كن اقرب إليه من زوجته أو بالسفر إلى الأماكن التي يحلو لبعض الشباب الذهاب إليها من اجل ذلك .
حتى هي تلك الفتاة أحست انه يعرف حدوده معها تماما ولم يحاول رغم عشقه لها وجنونه بها ان يدفعها للخروج معه أو يشجعها على ذلك ليقضي وطرا أو يتسلى بها . بل حافظ عليها تماما مما يعني بالإضافة إلى كرم معدنة صدق حبه ورغبته في أن تكون حليلة له.
وكان الأمل ان تتفهم الظروف والوضع لكنها اختارت وهذا من حقها ان تضمن حياتها معه على طريقة رسمت لها ، وكل الظن بل اليقين ان الشقيقة الكبرى صاحبة المشورة والرأي ومن خلال الحوار معها قد نبهتها إلى ذلك حرصا عليها وذلك من حقها أيضا بحساب التجربة الشخصية لها مع زوجها ، ولا نكاد نبتعد كثيرا عن الحقيقة حين نقول من تجربة أمها مع أبيها .
وبدأ الإحباط يتسلل إلى قلبيهما وبدأت جذوة الحب المشتعل يهدأ أوارها ليأخذ العقل مكانه بعد ان طغت العاطفة على دوره ووظيفته .
أيضيع الحب الطاهر النقي بهذه الطريقة ؟ هل يتبدد الحلم الجميل ويفيق الإنسان ليجد نفسه محاطا بالأطلال المتهدمة وبقايا قصر أحلامه ؟
امن اجل أوهام تقتلع أشجار الحديقة وتقطف زهورها وترمي تحت الأقدام ؟
سجن كئيب يعشش الظلام وخفافيش الحقد والكراهية بين جدرانه . يحتاط الشاب من كل اتجاه وهو يرفض ويصر إصرارا غريبا على حبه ورغم إحساسه بتسرب ماله من بين يديه إلا ان الأمل مازال يعيش بين ضلوعه فهو يعلم كم تحبه وتعشقه بتلك الإستدارة الصغيرة التي قلبت الدنيا فوق رأسه وأهدته إحساسا قويا وفوارا وعنيفا بالحياة .
واستدار في حركة فجائية ناحية الهاتف ومد يده لتناول السماعة ثم تركها فجأة أيضا ليعبث بأصابعه في جبهته واستسلم لنوبة من البكاء العنيف الذي كان يهز جسمه المتين هزا مما جعله يشعر بقليل من الراحة التي جعلته يبدأ في ترتيب أفكاره .

رفع سماعة الهاتف من جديد ودق رقمها وبعد ثوان عابرة جاء صوتها ضعيفا واهنا ودار حوار قصير طلبت منه فيه ان يحادثها ليلا وساد الصمت لحظات بينهما إلى ان أغلقت هي الخط من جانبها واجتاحه شعور حاد بالإرهاق النفسي فرمى بجسده على فراشه وغاب في نوم عميق .

أحس بنهم شديد للطعام فدلف إلى المطبخ كالفهد الجريح ليعد لنفسه الطعام بعد ان وضع اسطوانة موسيقى غربية حالمة في جهاز الاستريو وهي الاسطوانة التي كان يسمعها إياها على الهاتف وكانت عادة تنام على أنغامها في التليفون ، تناول طعامه في عجالة بمساعدة مشروب الكولا المفضل لديه وسحب جهاز التليفون بالقرب منه ودق مرة أخرى ردت شقيقتها . أغلق الخط . إذن ليس الآن لانتظر فترة أخرى هكذا حاور نفسه . غادر المنزل مستقلا سيارته باتجاه الكورنيش . الأضواء الصفراء الشاحبة تصنع خطا دائريا على حافة الخليج وتنعكس في مياهه مشكّلة منظرا بانوراميا رائعا اخذ الدورة كاملة حتى الشيراتون .

صف سيارته ودلف إلى البهو الرئيسي طلب الشاب قدحا من الكاباتشينو وجلس يطالع وجوه الناس بلا اهتمام وفي ملل وأحس بيد تربت على كتفه واستدار ليجد احد الأصدقاء الذين لم يقابلهم منذ فترة طويلة فدعاه إلى الجلوس لمشاركته الحديث ثم ودعه وانصرف ذاهبا إلى منزله .

وفي هدوء ترك سيارته مكانها وفتح باب منزله وبدأ يبدل ملابسه ثم تناول جهاز الهاتف وأحس في لحظة تناوله الهاتف ببرودة تسعى في أطرافه لكنه استجمع شجاعته ودق رقمها وجاءه صوتها على الجانب الآخر واهنا وواثقا في نفس الوقت وبدت بداية الحديث بلا معنى حيث الأسئلة التلقائية عن الأحوال والصحة ثم فاجأته بقولها لنكن أشقاء ولننسى الماضي .

فأجابها كمن يتوقع هل هي النهاية ؟ ومرت لحظة قبل ان تجيبه . كل الأمور والظروف تقول ذلك أحس لحظتها ان هناك الكثير مما يود قوله لكنه أحس يقينيا بأن كلامه سيكون بلا معنى وبادرته هي على الجانب الآخر من الممكن ان تطلبني بالهاتف كأخ يسأل عن أخته فضحك ضحكة مليئة بالمرارة وهو يرد عليها إذن سأغير اسمي ثم ودعته وأغلقت الخط .

وضع سماعة الهاتف مكانها ونهض يدور كالفهد الجريح في أركان منزله يجتاحه إحساس طاغ بالفشل والضياع ، لكنه ما زال يتشبث ببقايا الأمل في ان تعود لأنه يعلم ان رصيد العاطفة بينهما هائل وذكريات العشق المعطر بالرغبة بينهما لا تمحيها الأيام أو يحجبها الزمن.

وتسارعت الأحداث والذكريات في رأسه وتناول شريط كاسيت عليه صوتها . ذلك الكنز الذي يحتفظ به مع مجموعة ذكريات صوتية أخرى ، واخذ يطالعها وجسده ينتفض وهو يعبث بباقي الأشياء بلا مبالاة إلى ان اصطدمت عينه بصورة مفاجئة لطفله الوحيد فاحتضنها بين يديه واجتاحه طوفان من البكاء وهو يضمها إلى صدره .

جفف دموعه ثم تناول جهاز الهاتف مرة أخرى ودق أرقاما أخرى وان هي إلا لحظات وكانت زوجته على الخط تتثاءب وترد بصوت مليء بالنوم وسألها متى العودة ، وأجابت انتظرنا بعد الغد وكان كل شيء هناك على ما يرام .

نهض الشاب من نومه متحررا قليلا من أثقال الأمس وذهب إلى عمله ليطلب الفطور لزملائه بصوت تغلب عليه رنة حزن نبيلة .

وفي المساء ذهب ليداوم في مكاتب الشركة التي يملكها والده وبعد أربعة أيام بالتحديد أحس بالشوق إليها يغالبه فطلبها على الهاتف ليأت صوتها من جديد لكن بصورة أخرى ، حين قالت له : ان هذا الاسم الذي تطلبه ليس موجودا هنا .وأحس بغصة في حلقه وبجرح كبير في مشاعره وكرامته فوضع سماعة الهاتف .

ظل الأمل يتجدد كل صباح آتيا على أوتار أشعة الشمس يحيا به ولا يستطيع أن يتجاهله لأن ما يحمله في قلبه ومشاعره وذكرياته أكبر من ان ينسى . لكن قد يتحقق الأمل بعد فوات الأوان .

بدأ الشاب يلملم أوراقه التي أفرز عليها مشاعره واخذ يرتبها حتى الصفحة الأخيرة وإذا به يتناول بعض الأوراق البيضاء الخالية ليضمها إلى الأوراق الأخرى على أمل .